

ثوابت للمسلم المعاصر

الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي

المكتب الإسلامي

سلسلة ذخائر وبصائر
(١)

ثوابت للمسلم المعاصر

الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤١٠ - ١٩٨٩

الطبعة الثانية
١٤١٢هـ - ١٩٩١م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - برقيا : اسلاميا - تلكس : ٤٠٥٠١ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥ - فاكس : ٧٤٨٥٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله، نحمُده ونستعينهُ ونستهديه، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئاتِ أعمالنا. من يهدِ الله فلا مضلَّ له، ومَنْ يُضلِلْ فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله، وحدَه لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبدُه ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه.

أما بعد:

فإن المسلمين في هذا العصر ـ وبخاصةٍ الشبان المثقفين منهم ـ بحاجةٍ ماسَّةٍ إلى توثيقِ صلتهم بربِّهم، وبإسلامهم، وبقرآنهم بحاجةٍ إلى تَذْكيرهم المستمرِّ بأنفسهم، وبأهدافهم، وبوسائلهم، وتعريفِهم على واجبهم تجاه أنفسهم وتجاه إخوانهم المسلمين، وتجاه البشرية القلقةِ الضائعةِ المعذَّبة التي تنظرُ لهم، وتنتظرُ ما عندهم من علاج.

إن هؤلاء المسلمين المعاصرين بحاجةٍ ماسّة، إلى تعريفهم على الأُسس التي يوجِدونها، والمرتكزات التي يقيمونها، والمنطلقاتِ التي ينطلقون منها، والبواعثِ التي يتحرّكون من خلالها، و«الثوابتِ» التي يلحظونها ويستحضرونها، ويَصْدُرون عنها في كل لحظةٍ من الليل والنهار، وفي كل لفظةٍ في ليلٍ أو نهار، وفي كل خطوةٍ من ليل أو نهار، وفي كل خاطرةٍ أو هاجسٍ في ليل أو نهار.

إنهم بحاجةٍ ماسَّة لمعرفةِ هذه «الثوابت» واستمرار تذكُّرها، ودوام استحضارها، لما يوجِّهُه أعداءُ الاسلام في أساليبهم المختلفة لإزالة هِذه «الثوابت» من تصوُّر المسلمين، أو زعزعةِ ثقتهم بها.

وهم بحاجةٍ ماسّة لمعرفةِ هذه «الثوابت» لضمانِ قيامهم بالواجب الذي كلَّفهم الله به، ولأداءِ ما ينتظرُهم من مهامٍّ عظيمة، وأعمالٍ جليلة، فإن المستقبلَ للاسلام، الذي سينقذُ البشرية مما هي فيه الآن!

وإنني أقدمُ هذه «الثوابت» قياماً منّي بالواجب الذي أوجبه الله عليَّ، وتذكيراً للشباب المسلمين الثابتين على دينهم، وتعريفاً

للآخرين بهذه الثوابت للإقبال عليها، والالتزامِ بها، والصدور عنها.

فإنْ أفلحتُ في ما قدَّمْت فذلك فضْلُ الله عليَّ، فله الحمد والشكر، وإن كانت الأخرى فحسبي أنني حاولْت، وما أُريدُ إلّا الاصلاحَ ما استطعت. وما توفيقي إلّا بالله، عليه توكلتُ وإليه أنيب.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الدكتور صَلاح عبد الفتاح الخَالِديّ

١٩٨٩/٧/١٢

«الثوابت في عصرنا المتغير»

عصرُنا عصرُ التغيّر والتطوّر:

من أهم سماتِ العصر الحديث ـ الذي أُقصي فيه الاسلامُ عن الحكم والقيادة، وقـادَتْ فيه الجاهليةُ البشرية ـ أنه عصْرُ «التغيُّر الدائم والتطوُّر المطلق».

لقد أطلق الفلاسفةُ والمفكرون هناك ـ في بلاد الغرب ـ دعواتٍ عالية، دعوا فيها الناسَ إلى الثورة، الثورةِ على كلِّ ثابت، ومحاربةِ ما تعارَفوا عليه من الثوابت. وكانوا يقصدونَ من ذلك الثورةَ على «الدين الكَنَسيّ النصراني» بسبب الصراع العنيف المرير الذي جرى بينهم وبين الكنيسة، والـذي أدّى إلى انتصارهم على الكنيسة، وإقصائها عن القيادةِ والتوجيه، والكفر بما تقدِّمُه من أفكارٍ وتصورات.

لقدْ ثاروا هُناكَ على كل شيءٍ ثابت، فقاموا بتغيير تلك الثوابت التي عاشها أجدادُهم قروناً، والتي تواضعت البشريةُ على اعتبارِها في مسيرتها الحياتية عبر القرون.

غيَّروا الروابطَ والصِّلات، وغيّروا الفضائلَ والأخلاق، وغيَّروا الآداب والسلوكيات. حذفوا من «قاموسهم الحياتي» مصطلحات: العفّـةِ والعيب، والحـلالِ والحـرام، والطهارةِ والرفعة.. وبذلك انفلتوا منِ القيودِ والضوابط، وتحولتْ مجتمعاتُهم إلى «ماخورٍ» كبير، يمـارسـونَ فيه شهـواتهم ومجـونهم بحيوانيةٍ مرذولة، تتعففُ عنها حيواناتُ الغابة!

وأدّى «انفلاتُ» الضوابط والقيود عندهم، وزعْمُ «التغيُّر والتطور» الذي اعتقدوه، إلى أنْ أصبحتْ حياتُهم عجيبةً غريبة، ينظرُ لها المسلمُ البصير، فيعجب منهم، ويأْسىٰ لهم، ويشفقُ عليهم، ويرثي لحالِهم، وينطقُ بصوت مشفق: «يا حسرةً على العباد!».

صورة فنية ساخرة يرسمها سيد قطب للبشرية المنفلتة:

وأقدم هذه الصورة الفنية الساخرة التي رسمها للبشريةِ المنفلتة في بلاد الغرب، المصوِّر المبدعُ الشهيدُ سيد قطب عليه رحمة الله:

«لقد تركت البشريةُ الأصلَ الثابت، وأفلتَ زمامُها من كلٍّ ما يشدُّها إلى محور. وأصبحتْ أشبهَ بجرمٍ فلكيّ خرجَ عن مدارِه، وفارقَ محوَره الذي يدورُ عليه في هذا المدار. ويوشكُ أنْ يصطدمَ

فيدمِّرَ نفسه، ويصيبُ الكون كلَّه بالدمار: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الحقُّ أهواءَهُمْ لَفَسَدتِ السمواتُ والأَرْضُ وَمَنْ فيهِنَّ﴾» [سورة المؤمنين: ٧١].

والعاقلُ «الواعي» الذي لَمْ يأخذْهُ الدُّوار الذي يأخذُ البشرية اليوم. حين ينظرُ إلى هذه البشريةِ المنكودة، يراها تتخبطُ في تصوراتها، وأنظمتها، وأوضاعها، وتقاليدها، وعاداتها، وحركاتها كلِّها، تخبطاً منكراً شنيعاً.. يراها تخلعُ ثيابَها وتُمزِّقها كالمهووس! وتتشنَّجُ في حركاتها وتتخبَّطُ وتتلبَّطُ كالممسوس.. يراها تغيِّرُ أزياءَها في الفكر والاعتقاد، كما تغيِّر أزياءَها في الملابس، وفْقَ أهواءِ بيوتِ الأزياء! يراها تصرخُ من الألم، وتجري كالمطارَد، وتضحكُ كالمجنون، وتُعربدُ كالسِّكيِّر، وتبحثُ عن لا شيء! وتجري وراء أخيلة، وتقذفُ بأثمنِ ما تملك، وتحتضنُ أقذرَ ما تُمسكُ به يَداها مِنْ أحجارٍ وأوْضار! لَعنة! لعنةٌ كالتي تتحدثُ عنها الأساطير!

إنها تقتلُ «الانسانَ» وتحوِّلُه إلى آلة.. لتضاعِفَ الإنتاج.

إنها تقضي على «مقوِّماتِه الانسانية» وعلى إحساسِه بالجَمال والخُلقُ والمعاني السامية، لتحقيقِ الربح لعددٍ قليل من المرابين وتجار الشهوات، ومُنتجي الأفلام السينمائية وبُيوت الأزياء!

وتنـظرُ إلى وجـوهِ النـاس، ونظراتهم، وحركاتهم، وأزيائهم، وأفكـارهم، وآرائِهم، ودعـواتِهم. فيخيلُ إليكَ أنهم هاربـون! مطارَدون! لا يلْوُون على شيء، ولا يتثبَّتون من شيء! ولا يتريَّثون ليرَوْا شيئاً ما رؤيةً واضحةً صحيحة. . وهم هاربونَ فعلاً! هاربونَ من نفـوسهم التي بين جنـوبهم! هاربـون من نفوسهم الجائعةِ القلقةِ الحائرة، التي لا تستقرُّ عل «ثابت» ولا تدورُ على محورٍ ثابت، ولا تتحركُ في إطارٍ ثابت. . والنفسُ البشرية لا تستطيعُ أن تعيش وحدَها شاذةً عن نظام الكون كله. . ولا تملكُ أن تَسعدَ وهي هكذا شاردةٌ تائهة، لا تطمئنُّ إلى دليلٍ هاد، ولا تستقرُّ على قرارٍ مُريح!(١).

سرُّ انحرافِهم وضياعِهم: اتباعُ الهوى:

قلنا إنهم هناك منحرفون ضائعون، عندما «غيَّروا» كلَّ ثابت، وثاروا على كلِّ أصْل. وفعلوا ذلك لأنهم كانوا هاربين. هاربين من الله، هاربين من الدين، هاربين من النصرانية، هاربين من الكنيسة، كانوا هاربين من نفوسهم وأرواحهم وإنسانيتهم.

وسرُّ انحرافِهم وضياعِهم هو اتباعُهم أهواءَهم، لقد كانوا متبعين

---

(١) خصائص التصور الإسلامي لسيد قطب: ٩١ - ٩٢.

الهوى، وأساسُ المصائب هو اتباعُ الهوى، وسببُ الضياع هو اتباع الهوى، فأُسُّ البلاء هو اتباعُ الهوى، والفسادُ نتيجةٌ لازمة لاتباع الهوى.

قال تعالى: ﴿وَلَو اتَّبَعَ الحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمواتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فيهنّ، بَلْ أَتَيناهُمْ بِذكرِهِمْ، فَهُمْ عَنْ ذِكرِهِمْ مُعرِضون﴾ [سورة المؤمنون: ٧١].

وقال تعالى: ﴿أفَرَأَيْتَ مَن اتَّخذ إلهَهُ هَواه، وأضَلَّهُ الله عَلى عِلْم، وَخَتم على سمعه وقَلْبِهِ، وَجَعَلَ على بَصرِه غِشاوَة، فَمَنْ يَهديهِ مِنْ بَعدِ الله، أفَلا تَذكَّرون﴾! [سورة الجاثية: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿فإنْ لَم يستجيبوا لَكَ فاعلم أنَّما يَتَّبعون أهْواءَهُمْ، وَمَنْ أضَلُّ ممَّنِ اتبعَ هَواهُ بغيرِ هُدىً من الله؟ إن الله لا يَهدي القوم الظَّالمين﴾ [سورة القصص: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ: أندعو مِنْ دونِ الله ما لا يَنفعُنا وَلا يضُرُّنا، ونُرَد عَلى أعقابنا بَعدِ إذْ هدانا الله، كالذي اسْتهوتْهُ الشَّياطينُ في الأرضِ، حيرانَ...﴾ [سورة الأنعام: ٧١].

محاربةُ «الثوابت» في بلاد المسلمين:

وصلتْ دعاوى التغيُّر الدائم والتطوُّر المطلق إلى بلاد المسلمين، وأصابتْ عَدواها الوبيئة كثيراً من المثقفين من أبناء المسلمين، فتبنَّوْا تلك الدعاوى والأفكار الجاهلية، ولم يملكوا «بصائر قرآنيةً» هادية، وعقولاً إسْلاميةً واعية، فلم يقفوا على ضياعِ الغربيّين المتطوِّرين الثائرين على الثوابت، ولم يعتبروا بما أصابهم.

وشنَّ أبناءُ المسلمين، المرضى بعدوى «التغيّر الدائم والتطور المطلق» حرباً شرسةً على «الثوابت» الأصلية، التي يقدِّمها الاسلامُ لأبنائه، ودعوا المسلمين - وبخاصةٍ الشبابَ المثقفين منهم - إلى تبني مبادئهم وأفكارهم، وإلى محاربةِ كل «ثابت» صوَّروا لهم «الاسلامَ» بأنه دينُ الرجعية والجمودِ والتحجر، وصوَّروا حقائقه الثابتة بأنها المعوِّقُ لكلِّ تقدُّم ورقيّ، وصوَّروا دعاةَ الاسلام - أنصارَ الثوابت الاسلامية - بصورة المتأخرين الرجعيين المتخلّفين المتقوقِعين، أعداءِ التقدم والرقي، ودعاةِ الجهل والانغلاق.

واستخدم هؤلاء وسائلَ وأساليب شتى لاقناعِ أبناء المسلمين بأفكارهم، ونشر دعواتهم ومبادئِهم بينهم، ولم يتركوا وسيلةً إعلامية،

أو منبراً ثقافيا، وبذلك تجمعت لهم عدةُ وسائل وأساليب، ووُضعتْ بين أيديهم شتى الامكانات والألوان. استخدموا الكتابَ والقصة والقصيدة والرواية والمسرحية، استخدموا المجلة والجريدة، والمنشورَ والنشرة، استخدموا المحاضرة والندوة، والخطبة والحوار، استخدموا الاذاعة والتلفاز والشريط والفيديو، استخدموا السينما والمسرح، والملهى والملعب، والدعاية والاعلان.

وهجم هؤلاء الثائرونَ على الثوابت، بهذا الجيش الكثيف من وسائل الاعلام، على أبناء المسلمين، وغزوهم غَزواً فكرياً مركزاً، ووجهوا حربهم على عقيدة المسلمين وتصوُّرهم، وعلى قيمهم وأخلاقهم، وعلى صلاتهم وارتباطاتهم، وعلى كل جوانب ومجالاتِ حياتهم، ودَعَوْهم إلى تغيير كل ثابت، والثورة على كل ثابت، والخروج على كل ثابت، لأنهم في عصرِ التطور، لا في عصر الظلمِ والجهلِ والتأخُّرِ والانحطاط الذي عاشه أجدادهم.

أسباب الاستجابة لتلك الدعوات:

استجاب كثيرون من أبناء المسلمين ـ الشباب والمثقفين ـ لتلك الدعوات، وصدَّقوا تلك الاشاعات، واعتنقوا تلك

«الاسرائيليات!» وثاروا، ثاروا على كلّ ما دعاهُم المغرِضون إلى الثورة عليه، ثاروا على «الثوابت» الأساسية، التي ورثوها عن أجدادِهم العظام، وسلفهم الكرام. وأخذوها عن دينهم وإسلامهم وقرآنهم.

ووقع هؤلاء صَرعى الغزو الفكري المنظم، وعاشوا حيرةً أليمة، وضياعاً قاتلاً. وصَدق في هؤلاء قولُ الله تعالى: ﴿قُلْ أنَدْعو مِنْ دونِ الله ما لا يَنفعُنا ولا يَضُرُّنا، ونُرَدُّ على أعقابِنا بَعْدَ إذ هَدانا الله؟ كالذي اسْتهوَتْهُ الشَّياطينُ في الأرضِ حَيران. لَهُ أصحابٌ يَدعونَهُ إلى الهُدى، إئتِنا، قُلْ: إنَّ هُدى الله هُو الهُدى، وأُمِرنا لنسلِمَ لربِّ العالمين. وَأنْ أقيموا الصَّلاةَ، واتقوه﴾. [سُورة الأنعام: ٧١ ـ ٧٢].

وإذا توقفنا لحظة، لنعرفَ أسبابَ استجابةِ هؤلاء لتلك الدعوات، ولنتعرفَ على كيفيةِ انتقالِ الدعوات الجاهليةِ الانحرافيةِ إليهم، فإننا سنقفُ على هذه الأسباب:

١ ـ جهلُ أبناء المسلمين باسلامهم وبدينهم ـ والجاهلُ عدو نفسه، ومَنْ جهلَ شيئاً عاداه ـ وعدمُ معرفتهم للثوابت الاسلامية، التي ينطلقون منها، وبذلك فقدوا «الأرضية» الثابتةَ الصلبة التي يقفون

عليها.

٢ - الفراغُ الروحيُّ، والقلقُ النفسي، والافلاسُ الايماني، الذي عاشه هؤلاء، فَقادَهُمْ إلى الأفكار الغربية، وأوصلهم إلى نتيجتها الحتمية.

٣ - عدمُ «تحصين» أرواح ونفوسِ هؤلاء أمامَ الغزو الفكري الغربي المدمر، بل فتحُ قلوبهم وعقولهم أمام جراثيم وميكروبات العدوى الوبائية القادمة، فدخلت تلك الميكروباتُ إلى نفوسهم، واستقرتْ في قلوبهم وعقولهم وأدمغتهم، وعملتْ في كيانهم نقضاً وتدميراً وإفناءاً.

٤ - «الطابورُ الخامس» من المضللين، أدوات الغزو الفكري، الذين استخدمهم أساتذتهم من شياطين الانس ودهاقين الكفر.

٥ - تمكينُ أولئك «الطابور الخامس» - أعداء الثوابت الاسلامية - من مختلف الوسائل الاعلامية، وفتحها لهم، وجعْلُها بين أيديهم، وتوظيفُ الأموال والمخترعاتِ والأدواتِ والعقول والمواهب والأفكار لخدمة هؤلاء في غزو العقول والقلوب، فصار ابناءُ المسلمين يعيشون ذلك الغزو وأدواته وجنودَه في كل لحظةٍ من ليل أو نهار.

٦ - إنفتاحُ المسلمين على ثقافةِ الغرب وحضارته، والاعجابُ بعلومه ومعارفه، والانخداعُ بأفكاره ومبادئه وآرائه، و «العبُّ» منها بدون حساب، والأخذُ منها بدون ضابط ولا ميزان.

٧ - إقصاءُ الاسلام عن دفةِ الحكم والتوجيه والتأثير، و «حشْرُهُ» في زوايا المساجد، وقوانين الأحوال الشخصية، وإغلاقُ مجالاتِ حياة المسلمين ومرافقها ومظاهرها أمامه، وتحريمُ تدخُّلِه في الحياة السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية أو العسكرية أو الفنية للمسلمين.

وبذلك غابتْ عن أبناء المسلمين «الصورةُ الاسلاميةُ العَملية»، والنموذجُ الحي للأحكام الشرعية، والجوُّ الواقعيُّ الذي تعيشُ فيه حقائق الاسلام ومبادؤه وأسسُه وقيمُه ومفاهيمه.

٨ - محاربةُ دعاةِ الاسلام ورجاله وجنودِه - أنصارِ الثوابت الأصيلة - والحيلولةِ بينهم وبين التأثير في عقولِ وقلوبِ المسلمين، وإغلاقُ منافذِ التوجيه، ومنابرِ التأثير، وأدواتِ الاتصال، في وجوههم!

مسلمو اليوم: أسوأ نموذجٍ عبر التاريخ:

ماذا نتج عن ذلك الغزو؟ مَن نحن؟ ما هو «واقعنا المعاصر»[1]؟ لنكنْ صرحاءَ مع أنفسنا، فإننا في زمانٍ لا بدَّ فيه من أن نكونَ صرحاء مع أنفسنا على الأقل، وأشنعُ صور الكذب أن نكذبَ على أنفسنا!

نتج عن تلك الحرب الشرسةِ ضدَّ «الثوابت الاسلامية» النتيجةُ المنطقية، والنهايةُ الطبيعية.

أضعنا ثوابتنا، وفقدنا هويتنا، ومزَّقنا تميُّزنا. فلا نحنُ مسلمون حقاً، ولا نحن كافرون حقاً! فقدْنا اتصالنا باسلافنا وأجدادنا، ورفضَنا الغربيون ولم يعترفوا بنا، فضعنا في متاهاتٍ مضلَّة.

إن «واقعنا المعاصر» ليس واقعاً إسلامياً ربانيّاً، كما أنه ليس واقعاً غربياً صرفاً.

إنني كثيراً ما أتساءل: أترى لو أنَّ محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ بُعثَ حياً، وأتى إلى بلاد المسلمين، وعاش واقعهُم المعاصر،

---

(١) عنوان كتاب قيم للمفكر الأستاذ محمد قطب، صدر حديثاً، ننصح بقراءته.

فكمْ سيقبلُ من أوضاعهم ونُظُمهم وتشريعاتهم وقيمهم وعاداتهم، ؟
وكم سيرفضُ من هذه المظاهر والألوان؟ ماذا سيكونُ شعورُه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لو «تجوَّلَ» في واقعِ المسلمين المعاصر، ودخل إلى مؤسساتهم ومراكزهم ومرافقهم وكياناتهم وبيوتهم؟

إنه لن يعترفَ بمعظم هذا الواقع البائس الذي يعيشهُ المسلمون اليوم! ولن يرضى بحياتهم، ولن يُقرَّ مناهجهم، وسيقولُ «سُحقاً سُحقاً لمن غيَّر بعدي» لأنه سيعلمُ أنهم ما زالوا مرتدِّين متقهقرين.

وعندها ماذا سيقولون عنه؟ ألن يتهموه بالأصولية والتطرف وغيرها من التُّهم الموجَّهة لدعاة الإسلام الآن!

من نحن؟

لنكن صرحاء: إنَّ مسلمي هذا الزمان هم أسوأ نموذجٍ للمسلمين عبْرَ التاريخ الإسلامي. لقد فقدَ معظمُ المسلمين الثوابتَ الاسلامية، فعاشوا واقعاً غريباً، ابتعدُوا عن الاسلام في كلِّ شيء: في الدين، والقيم، والأخلاق، والسلوك، في الأهداف، والوسائل، في السياسة، والحكم، والاقتصاد، والعلم، والعمل.

لا يأس: فالمسلمون قادمون:

هذه الصورة المرسومة لواقعنا المعاصر. لم نكُنْ مبالغين ولا مُغالين في الاشارة إليها، فهي واضحةٌ لكلِّ ذي عينين نافذتَيْن.

ولكننا - من باب الانصاف والمنهجية - يجب أن نشير إلى حقيقة عظيمة مبشرة: يوجد في بلاد المسلمين ومجتمعاتهم كثيرٌ من المسلمين الصادِقين الملتزمين المخلصين العامِلين الثابتين، وهم «يتوزَّعون» قطاعاتٍ كثيرةً بين المسلمين، بين الرجال والنساء، والشباب والشابات، والطلاب والطالبات، وهم يعيشون إسلامهم، ويلتزمون به، ويدعون إليه، ويُصمِّمون على عودته إلى واقع الحياة من جديد. وهؤلاء يتضاعفون ويزدادون - ولله الحمد -.

إنهم أملُ الأمة، وعمادُ المستقبل، ودعاةُ الانقاذ للبشرية جمعاء. وعلى أيديهم سيتمُّ النصرُ - باذن الله - وسيتحقَّقُ التغيير، وستنجلي الغُمَّة، وتتلاشى الغاشية، ويتبدَّدُ الظلام، وسينبثقُ النور - باذن الله - من وسط الظلام، ويظهرُ الأمل من وسطِ المحنة. هذا وعْدُ الله، ولن يخلف الله وعده.

عَلمنا من إسلامنا أن لا نيأس مما عند الله، وأنْ نثق بمواعيد الله، ﴿ولا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ الله، إنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ الله إلاّ القَومُ الكافِرون﴾ [سورة يوسف: ٨٧].

﴿قـالوا: بَشَّرْناكَ بالحَقّ، فَلا تَكُنْ مِنَ القانِطين. قال: وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحمةِ رَبِّهِ إلاّ الضّالون؟﴾ [سورة الحجر: ٥٥ ـ ٥٦].

﴿فإنْ كُنْتَ في شَكٍّ مما أوْحَيْنا إليْكَ، فاسْأل الذينَ يَقْرأونَ الكِتـابَ مِنْ قَبلِك، لَقَـد جاءَكَ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ، فلا تكونَنَّ مِنَ المُمترين﴾ [سورة يونس: ٩٤].

عَلَّمَنا رسولُنا ـ ﷺ ـ الأملَ والثقة.

وتعلمْنا أن «المستقبل لهذا الدين» وأنَّ الاسلامَ سيعود إلى ما كان عليه من حكمٍ وتـوجيهٍ وقيادة، وأن المسلمين قادمون، وأنَّ البشرية المعذبة القلقة ستفيءُ إلى هذا الاسلام بإذن الله.

لكننا لا بدَّ أن نقرنَ الأمل بالعمل، والانتظارَ بالحركة، وأن نقومَ بواجبنا في تعجيلِ قدومِ ذلك الموعودِ الاسلامي الكريم.

الثبات والحركة في التصور الاسلامي

هناك تناسقٌ وتوازُنٌ بين الثبات والحركةِ في التصور الاسلامي، فليست الأمورُ كلُّها متغيِّرةً متطوّرة، كما أنها ليست كلُّها ثابتةً واقفة.

وقد تكلم المفكِّرُ الرائد «سيد قطب» عن التوازُنِ بين الثبات والحركة في فصْلِ «الثبات» من كتابه «خصائص التصور الاسلامي» حيث اعتبر هذا الثبات خصيصةً من أهمِّ خصائص التصور الاسلامي، وسمةً بارزةً واضحةً من سِماته.

كما خصَّصَ شقيقُه المفكرُ «محمد قطب» كتاباً لهذا الموضوع، لاحظَ فيه التناسقَ والتوازنَ بين الثباتِ والحركة، وهو كتابُ «التطور والثبات في حياة البشرية». ونُحيلُ القارىء على كلام الشقيقين المفكرَيْن لجودته ونفاسته وأهميته.

وخلاصةُ التناسق والتوازن بين الثبات والتغيُّر في التصور الاسلامي كما قدَّمها «سيد قطب» في الفصل المذكور، هي في هذه العبارة: «الحركةُ داخل إطار ثابت، حَوْلَ محورٍ ثابت».

ولما شرح سيد قطب هذه العبارة قال: «هناك «ثباتٌ» في

«مقومات» هذا التصوُّر الأساسية، و«قيمه» الذاتية. فهي لا تتغيَّرُ ولا تتطور؛ حينما تتغَيَّرُ «ظواهرُ» الحياة الواقعية، و«أشكالُ» الأوضاع العملية.. فهذا التغيُّر في ظواهر الحياة وأشكالِ الأوضاع، يظلُّ محكوماً بالمقوِّماتِ والقيم الثابتة لهذا التصور..

ولا يقتضي هذا «تجميدَ» حركة الفكر والحياة. ولكنه يقتضي السماحَ لها بالحركة - بل دفعها إلى الحركة - ولكن داخلَ هذا الاطار الثابت، وحول هذا المحور الثابت...»[1]

ويوحي بهذا الثبات الأصيل في التصور الاسلامي قولُه تعالى: ﴿فَأقمْ وَجهكَ لِلدِّينِ حنيفاً. فطرَةَ الله التي فَطَرَ الناسَ علَيها. لا تَبديلَ لَخَلق الله، ذلك الدِّينُ القيِّم. ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون. مُنيبين إليهِ، واتقوه، وأقيموا الصَّلاة، ولا تكونوا مِن المشركينْ﴾ [سورة الروم: ٣٠ - ٣١].

من الحقائق الثابتة في التصور الاسلامي:

سنأخذُ من كتاب «خصائص التصور الاسلامي» نماذجَ من الحقائقِ الثابتةِ في هذا التصور، ونكتفي بذكرها، ونحيلُ على بيانِ

(١) خصائص التصور الإسلامي: ٨٥.

«سيد قطب» لها في الفصل المذكور.

١ ـ كلُّ ما يتعلقُ بالذاتِ الالهية العليَّة، من وجودٍ وأسماءٍ وصفات، وأفعالٍ في الكونِ والحياةِ والانسان، وفي الدنيا والآخرة.

٢ ـ الكونُ ـ وما فيه ـ مخلوق، وليس فيه خالق، لأنه لا خالقَ إلا الله.

٣ ـ عبوديةُ كلِّ المخلوقين لله، من جماداتٍ وأحياء. وبخاصةٍ الملائكة والجن والانس.

٤ ـ الايمانُ ـ بأركانه ـ شرطُ قبول الأعمال عند الله، وشرطُ النجاةِ من النار ودخولِ الجنة يوم القيامة.

٥ ـ الاسلامُ هو خاتمُ الأديان والرسالات، ولا يقبلُ الله من الناس ديناً غيره، فمن ماتَ على غيرِ الاسلام فهو كافرٌ مخلدٌ في النار.

٦ ـ الانسانُ هو الخليفةُ في هذه الأرض، وهو سيدُ ما فيها، وكلُّ ما في هذا الكون مسخرٌ لخدمته، مذلَّلٌ له. ما أعظمها منزلة، وأرفعَها كرامة، لهذا الانسان!

٧ ـ «الانسانية» عند الانسان، هي أهمُّ وأعلى قيمةٍ في هذا الوجود، لا تقاربُها أو تدانيها قيمةُ أيِّ مخلوق أو «شيءٍ» آخر، ماديٍّ أو معنوي.

٨ ـ النـاسُ جميعـاً من أصلٍ واحد، متساوون في الانسانية، لا يتفاضلون أو يتمايزون بأية صورة مادية شكليّة، ولكنما بالتقوى فقط.

٩ ـ العبادةُ لله هي وظيفةُ الانسان في هذه الحياة، ويجب أن تدخل في كل حركةٍ ولحظةٍ لهذا الانسان من ليلٍ أو نهار.

١٠ ـ رابطةُ التجمع الوحيدةُ المقبولةُ عند الله، واللائقةُ بانسانية الانسان هي العقيدةُ في الله، والأخوةُ في الله، والمحبةُ في الله.

١١ ـ الدنيا دارُ ابتلاء وعمل، والانسان ممتحَنٌ مبتلى في كل لحظةٍ فيها. والآخرةُ دارُ حسابٍ وجزاء، ويقرَّرُ مصيره هناك على عمله هنا[١].

---

(١) انظر خصائص التصور الإسلامي: ٨٧ ـ ٩٠.

أبرز مظهر للثبات في التصور الاسلامي:

يقدِّمُ التصورُ الاسلامي البشرية في تاريخها الطويل كلِّه - ماضيه وحاضره ومستقبله - في حقيقةٍ ثابتة، لا تتغيَّر ولا تتبدَّل ولا تتحوَّل، بحيثُ اعتبرت هذه الحقيقةُ التاريخية أبرز مظهرٍ للثبات في هذا التصور.

هذه الحقيقةُ التاريخيةُ الثابتة تقومُ على أساسٍ ثابت: «إن هناك حالتين اثنتين للحياةِ البشرية. ولا علاقةَ للزمان أو للمكان في تقديرِ قيمةِ هاتين الحالتين. إنما القيمةُ لذاتِ كلِّ حالة. ولوزنها في ميزانِ الله الثابت، الذي لا يتأثرُ بالزمان والمكان. حالتان اثنتانِ تتعاورانِ الحياةَ البشرية على مدى الزمانِ واختلاف المكان:

حالة الهدى وحالةُ الضلال - مهما تنوعتْ ألوانُ الضلال -.
حالةُ الحق وحالةُ الباطل - مهما تنوعتْ ألوانُ الباطل -.
حالةُ النور وحالة الظلام - مهما تنوعتْ ألوانُ الظلام -.
حالة الشريعة وحالةُ الهوى - مهما تنوعتْ ألوانُ الهوى -.
حالةُ الاسلام وحالةُ الجاهلية - مهما تنوعتْ ألوانُ

الجاهلية ـ.

حالةُ الايمان وحالةُ الكفر ـ مهما تنوعتْ ألوانُ الكفر ـ.

إما أنْ يلتزم الناسُ الاسلامَ ديناً (أي منهجاً للحياة ونظاماً) وإلا فهو الكفرُ والجاهليةُ والهوى والظلامُ والباطل والضلال.

قال تعالى: ﴿إنَّ الدّينَ عندَ الله الإسلام﴾ [سورة آل عمران: ١٩].

وقال تعالى: ﴿ومَنْ يبتغِ غيرَ الإسلام ديناً فَلَنْ يُقبلَ مِنْه﴾ [سورة آل عمران: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿فماذا بَعد الحقِّ إلاّ الضلال؟﴾ [سورة يونس: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعلناك على شريعةٍ من الأمرِ فاتَّبعها. ولا تَتَّبعْ أهْواءَ الذّينَ لايَعلمَونْ﴾ [سورة الجاثية: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وأنَّ هذا صراطي مُستقيماً فاتَّبعُوه. ولا تتبعوا السُّبُل، فَتفرَّقَ بكُمْ عَنْ سَبيله﴾ [سورة الأنعام: ١٥٣].

وقال تعالى: ﴿الله وليُّ الذين آمنوا. يُخرجُهم مِنَ الظُّلماتِ إلى النّور. والذين كَفروا أولياؤهُمُ الطّاغوت،

يُخرجونَهم من النّورِ إلى الظلُمات﴾. [سورة البقرة: ٢٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ لم يَحكُم بما أنزل الله، فأُولئكَ هُمُ الكافِرون﴾ [سورة المائدة: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿أفحكم الجاهليةِ يبغون؟ وَمَنْ أحسَن من الله حُكْماً لقومٍ يوقنون؟﴾ [سورة المائدة: ٥][1].

في الثبات نجاة المسلمين:

للثبات أثرٌ بارزٌ في حياة المسلمين. فيه يعيشُ المسلمون بتناسقٍ توازنٍ في حياتهم. وبه يُنسقون بين حركتهم وحركةِ الكون الثابت الذي يعيشون فيه. وبه يضبطون حركتهم من أن تفلتَ عن إطارها، أو تخرج عن مدارها. وبه يرجعون إلى «ميزان ثابت» و«مرجع دائم» يتحاكمون إليه عند التنازع والاختلاف. وبه يحفظون مجتمعهم من الهزّات والضياع والالحاد. وبه يُمنحون الطمأنينة والحرْية والعزة. وبه يمنعونَ التسلط والاستبداد، ويُحاربون الظلم والفساد.

---

(١) خصائص التصور الإسلامي: ١٠١.

إن في هذا «الثبات» نجاةَ المسْلمين في الدنيا، وفوزهم في الآخرة.

لقد حفظ «الثباتُ» المجتمع الاسلامي - بفضل الله - من الهزات عبر التاريخ الاسلامي. فتجاوزَ المسلمون الخلافات السياسية والفكرية والمذهبية بينهم، ولم تؤثر تلك الخلافاتُ في أسس الاسلام وحقائقه وخصائصه ومقوماته. واستعلى المسلمون على الفتنةِ المادية، لما أقبلتْ عليهم الدنيا وخيراتُها بعد الفتوحات الاسلامية. وواجهَ المسلمون الحضاراتِ الطاغية في البلدان المفتوحة، الحضارات اليونانية والرومانية والفارسية والهندية، وواجهوا الهجماتِ الصليبية الشرسة، والاجتياحَ المغولي المدمر، والغزو الاستعماريَّ المعاصر.

وبالثبات ينجح المسلمون المعاصرون في مواجهةِ أخطر غزوٍ لهم، وأكبر تحدٍّ أمامهم، وهو الثالوث العالمي المتآمر: اليهودية العالمية، والصليبية الحاقدة، والشيوعية الملحدة!

الثبات على الثوابت

أزمتُنا أزمةُ ثوابت:

لا يشكُّ أحدٌ في أن المسلمين المعاصرين، يواجهون أخطر التحـديات التي مرَّتْ بهم في تاريخهم كلِّه، حيث وقفـوا أمـام التحدي العالمي الكبير، والكيدِ العالمي الحاقد، والغزو الفكري الشرس، وأخطرُ ما في ذلك التحدي، وأشرسُ ما في ذلك الغزو، هو الخطرُ اليهودي الماحق.

لقد صدقَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ في تصويره الخطر الذي يهدِّد هؤلاء المسلمين. وذلك في ما رواه أبوداود عن ثوبان ـ مولى رسول الله ﷺ ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشكُ الأممُ أنْ تداعى عليكم، كما تداعى الأكلةُ إلى قَصعتها. فقال قائلٌ: ومن قلةٍ نحنُ يومَئذ؟ قال: بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنكم غُثاءٌ كغُثاءِ السَّيل، ولينزعنَّ الله من صدورِ عدوِّكُم المهابةَ منكم، وَليقذفَنَّ في قلوبكم الوَهْن. فقال قائلٌ: يا رسول الله: وما هو الوَهْن؟ قال: حُبُّ الدنيا وكراهيةُ الموت»[1].

---

(١) سنن أبي داود. كتاب الملاحم رقم (٣٦). باب في تداعي الأمم على الإسلام رقم (٥). حديث رقم: ٤٢٩٧.

وفي هذا التحدي العالميِّ الكبير، والغزوِ الفكري الخطير، نجدُ رحى الإسلام ومواقِعهُ دائرة.

ونحن مطالبون أن نكون مع الاسلام، في رحاه ومعاركه ومواقعه، وأن نثبت عليه، وأن ندور معه حيث دار.

وقد دلنا رسول الله - ﷺ - على هذا الثابت الأساسي، وأوصانا فيه بوصية جامعة. فقد روى «معاذ بن جبل» رضي الله عنه عن رسول الله - ﷺ - قال: «خذوا العطاء ما دام عطاء، فإذا صار رشوة على الدين فلا تأخذوه، فلا تأخذوه، ولستم بتاركيه، فيمنعكم من ذلك المخافة والفقر. ألا إن رحا الايمان دائرة، فدوروا مع الكتاب حيث يدور، ألا وإن السلطان والكتاب سيفترقان، ألا فلا تفارقوا الكتاب، ألا إنه سيكون عليكم أمراء، إن اطعتموهم أضلوكم، وإن عصيتموهم قتلوكم! قالوا: فكيف نصنع يا رسول الله؟ قال كما صنع أصحاب عيسى، حملوا على الخشب، ونشروا بالمناشير! موت في طاعة الله، خير من حياة في معصية الله»[1].

---

(١) رواه إسحاق، ورواه أحمد بن منيع. وقال البوصيري: رواة أحمد بن منيع ثقات. انظر «المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية» لابن حجر العسقلاني. تحقيق عبدالرحمن الأعظمي: ٤: ٢٦٧ - ٢٦٨. حديث رقم: ٤٤٠٨.

إننا لا نجتازُ هذه المرحلة، ولا نتجاوزُ هذه المحنة، ولا ننجحُ في هذا التحـدي، إلا بالثـوابت، بمعرفتها وملاحظتها ومعايشتها والثباتِ عليها والانطلاقِ منها.

- وسـوف نجتـازُ هذه المحنةَ الخطيرة - باذن الله - كما اجتاز أسلافنا المحن السابقة، وسيخرجُ الاسلام - باذن الله - من هذه المحنة أصيلاً صافياً ظافراً منتصراً، كما حصل في السابق!

من مزايا هذه الثوابت:

توفَّـر للثـوابتِ الاسـلامية، ما لـم يتـوفَّـرْ لغيرهـا من القواعد والأسس، من مزايا وسماتٍ وخصائص، وذلك بفضل التميز والتفرّد الملحوظين في الدين الاسلامي العظيم.

من مزايا هذه الثوابت للمسلم المعاصر:

١ - أنها ثمرةٌ طيبةٌ لشجرةٍ مباركة، إنها ثمرةٌ لشجرة الايمان في قلبه وكيانه، ولذلك هي مرتبطةٌ بالايمان عنده سلباً وإيجاباً، فإذا قوي إيمانُه ترسختْ ثوابتهُ، وإذا ضعفُ إيمانه وَهَتْ واهتزّتْ ثوابتهُ. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ الله مَثلاً كلمةً طَيِّبَةً كشجَرَةٍ طَيِّبة، أصْلُها ثابت، وفَرعُها في السَّماء، تؤتي أُكلها كُلَّ حينٍ بإذنِ رَبها. ويضربُ الله الأمثال لِلناس لعلهُم يَتذكرون. ومثلُ

كلمةٍ خبيثة كشجرة خبيثة، اجْتُثت مِنْ فَوقِ الأرضِ ما لَها من قرار. يُثبِّتُ الله الذين آمَنوا بالقول الثابت في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرة﴾. [سورة إبراهيم: ٢٤ - ٢٧].

٢ - أنها أصيلة، حيث يستمدُّها المسلم من توجيهاتِ القرآن الكريم، وإرشاداتِ السنة الشريفة الصحيحة، ومن تطبيقِ الرسول - ﷺ - العمليِّ لها، ومن التزامِ الصحابة الكرام، والعلماءِ الأعلام، والمصلحين العظام بها وثباتِهم عليها.

أيْ أنّ المسلم المعاصرِ - في التزامه بهذه الثوابت - متَّبعٌ وليس مبتدِعاً، مهتدٍ وليس ضالاً ولا مضلاً، يسير فيها على خطى مَنْ سبقه، من الذين أنعمَ الله عليهم، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقاً.

٣ - أنها ملزمةٌ لهذا المسلم، بمعنى أنه يجبُ عليها ملاحظتها، والثبات عليها، والالتزامُ بها، إنْ أراد أن يعيش إسلامه عملياً، وينجح في مواجهة اعدائه والفوز برضوان ربه.

إنه ليس مخيَّراً فيها، إن شاء التَزَم بها، وإن شاءَ تخلى عنها، إنها من لوازم إيمانه ومظاهر إسلامه.

٤ - أن لها مجالاً واسعاً، وبُعداً عريضاً. فهي شاملةٌ لحياتِه كلها،

في كل مرافقها وجوانبها وآفاقها ومظاهرها. في المجال الفردي والجماعي والاجتماعي، مع نفسه ومع المقرَّبين والآخرين والناس أجمعين.

٥ ـ أنها سرُّ شخصيةِ المسلم وهيبته ووجودِه فَبِها يعيش حياته حُرّاً أبيّاً، وعزيزاً كريماً، يرفضُ الضيم، ويستعلي على مظاهر الضعف، . ويصبرُ على الأذى، ويحتملُ الابتلاء، ويواجهُ الظلمَ والجبروتَ والطغيان، ويفرضُ احترامه وتقديره على الآخرين، ولو كانوا أعداءَه ومحاربيه وسجّانيه وجلاّديه.

٦ ـ أنها لله، يتوجَّه بها المسلم لربه، باخلاصٍ وإنابة وتجرد، لا يطلبُ عليها من الناس جزاءً ولا شكورا، ولا ينتظرُ منهم ثناءً ولا مدحاً، بل يعتبرُها عبادة يتقرَّب بها لله، يرجو منه وحده الثواب عليها.

إن مراعاة المسلم للثوابت الايمانية عبادة، وإن ثباتَه على هذه الثوابت عبادة، تكادُ تساوي بعض الشعائر التعبديةِ التطوُّعية، التي اعتادَ المسلمون أداءَها لله.

٧ ـ أنها مظهرٌ من مظاهرِ حاجةِ المسلم لربه، ولجوئه إليه، واستعانته والعوذ به. فهو يعتبرُ أنه وحده لن يصمدَ لها ولن يثبتَ عليها، ولذلك يتوجَّه إلى ربه بحاجةٍ وإلحاحٍ واضطرار، فيطلب منه ـ سبحانه ـ العون والتثبيت، ويدعوه بتضرُّع ومسكنة قائلاً: «اللهمَّ

يا مقلِّبَ القلوب، ثبِّت قلبي على دينـك. اللهم يا مصـرف الأبصار، اصرف بصري إلى طاعتك».

٨ ـ أنها ضروريةٌ لهذا المسلم، إذ هي صمّامُ الأمان له، يقيهِ ـ بفضل الله ـ من الشرودِ والضياع والانفلاتِ والانحراف، وهي بمثابـةِ قارب إنقاذٍ له، يجتازُ به الأعاصير والأمواج، والعواصف، وسفينة نجاة، يعبرُ بها بحر «الحياة» الزاخرِ المتلاطم. وبدون هذه الثوابتِ لنِ ينجح في تجاوزِ كل هذهِ الأخطارِ والأهوال، والوصول إلى برِّ الأمان بأمان وسلام.

٩ ـ أنها ملازمةٌ لهذا المسلم، لا يُتصوَّر تخلّيه عنها، ولا تركُه لها. إنها ألصقُ به من جلده، فإذا أمكنهُ الانسلاخُ من جلده، والسيرُ في الأرض «مسلوخاً» فليفكِّرْ عندها في انسلاخه عن ثوابته!! وصـدق الله حيث يقول: ﴿**وَاتْلُ عَليهم نَبأ الذي آتيناهُ آياتِنا، فانسلخَ مِنها، فأتْبعهُ الشيطانُ فكانَ مِنَ الغاوين. وَلوْ شئنا لَرفعناهُ بها، وَلكنَّهُ أخلدَ إلى الأرض، واتبع هواه، فمثلُهُ كمثَل الكلب، إنْ تَحملْ عَليهِ يَلهثْ، أو تَتْرُكْهُ يَلهثْ، ذلك مَثلُ القومِ الذّين كذَّبوا بآياتنا**﴾ [سورة الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦].

إن هذه الثوابت ألزمُ للمسلم من روحِه التي بين جنبيه، لأنه بها إنسانٌ حرٌّ كريمٌ عزيزٌ أبيّ.

١٠ ـ أنها أغلى عنده مِن كل شيءٍ في الحياة، بل أغلى عنده من نفسه التي يحملُها، وأهمُّ عنده من أنفاسِه ونبضات قلبه، ولذلك يقدِّمها على كل شيء ويضحي من أجلها بكل شيء، ولو كان هذا الشيءُ هو حياتُهُ وروحه، ولو كان هذا الشيءُ هو أنفاسه ونبضاتُ قلبه، إنه يضحي من أجلها بماله وأهلِهِ وولده ومنافعِه ومصالحه ودنياه، بل يضحي من أجلها بنفسه وروحه وحياته، ولا يفعلُ فِعلَ بعض «تجارِ المبادىء» و«أزلامِ المواقِف» الذين يُضحون بثوابتهم من أجل مصالحهم ومنافِعهم!!

مساومات على الثوابت

ومن السماتِ الواضحة والمزايا البارزةِ لهذه الثوابت أنها لا تقبلُ المساومة، ولا تخضعُ للمداهنة، ولا تجري عليها المناورة، ولا تتأثرُ بسوق «العَرض والطلب» ولا تؤثرُ فيها الظروف والأحوال.

ولكن أعداءَ الحق يحاولون مداهنة جنودِ الحق، ويساومونهم على ما عندهم من ثوابت وحقائق، ويدعونهم

للتخلّي عنها.

حاوَلـوا هذا مع نبيِّ الله إبراهيـم ـ عليه السلام ـ ولكنه واجههم بالثبات على ثوابته: قال تعالى: ﴿وَحاجَّهُ قَومُه. قال: أتحاجّوني في الله، وقد هَدان. ولا أخافُ ما تُشْرِكونَ به إلّا أنْ يشاءَ رَبّي شَيئاً.﴾ [سورة الأنعام: ٨٠].

وقد دلَّ القرآنُ محمداً ـ ﷺ ـ على أُسلوبِ الأعداء الدائمِ في المساومةِ على الثوابت والمداهنةِ عليها. قال تعالى: ﴿فَلا تُطِعِ المكذِّبين. وَدّوا لَوْ تُدهِنُ فَيدهِنون﴾ [سورة القلم: ٨ - ٩].

ومن أطرفِ مساومات قريش للرسول عليه الصلاة والسلام ما رواه ابنُ جرير الطبري وابنُ أبي حاتم والطبراني عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن قريشاً دعَتْ رسول الله ـ ﷺ ـ إلى أن يُعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة، ويزوِّجوه ما أرادَ من النساء، وقالوا: هذا لَك يا محمد، وكُفَّ عن شتم آلهتنا، ولا تَذكُرها بسوء.

فإن لم تفعل فإنا نعرضَ عليك خصلةً واحدة، ولك فيها

صلاح. قال: وما هي؟ قالوا: تعبدُ آلهتنا سنة، ونعبدُ إلهك سنة! فأنزل الله سورة «الكافرون». . »[1].

ولقد أمَر الله رسوله ﷺ، أن يقطع أملهم فيه، وأن يبطل مساومتهم له على ثوابته، وأن يُسمعهم سورة الكافرون: ﴿قُلْ يا أيُّهـا الكافِرون. لا أعْبُدُ ما تَعبدونْ. ولا أنتُمْ عابدون ما أعْبد. ولا أنا عابدٌ ما عَبدتُمْ. ولا أنْتُمْ عابِدونَ ما أعْبُدْ. لكُمْ دينُكُمْ وَلِيَ دينْ﴾ [سورة الكافرون].

وامتنَّ الله على رسوله - ﷺ - بتثبيته على الحق الثابت، وعصمته له من التنازل عنه والاستجابةِ لمساومات المشركين والالتقاء معهم في منتصف الطريق. قال تعالى: ﴿وَإنْ كادوا ليفتِنـونَـكَ عَن الـذي أوْحينْـا إليْكَ لِتفترِيَ عَلَيْنا غيْره. وَإذاً لاتخذوكَ خليلاً وَلَوْلا أنْ ثَبتناكَ، لقد كِدت تَركنُ إليهمْ شَيئاً قليلاً. إذاً لأذَقْناكَ ضعف الحياة وضَعف الممات، ثُمَّ لا تَجدُ لَك عَلينا نصيراً. وإنْ كادُوا لَيَستفزّونَكَ مِنَ الأرْض ليخرجوكَ مِنها. وإذاً لا يَلْبثونَ خِلافَكَ إلاّ قليلاً. سُنَّةَ مَنْ قَدْ أرْسلنا قَبلَكَ

---

(1) الدر المنثور للسيوطي ٨: ٦٥٤.

مِنْ رُسُلنا، وَلا تجدُ لسُنتنا تحويلا﴾. [سورة الاسراء: ٧٣ - ٧٧].

وقد ثَبَّتَ الله رسوله على الحق، أمامَ مساومات أعدائه له، في قوله تعالى: ﴿أفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنةٍ مِنْ رَبِّه؟ وَيتْلوهُ شاهِدٌ مِنْه، وَمِنْ قَبله كتابُ موسى إماماً وَرَحمةً؟ أُولئك يُؤمنونَ به، ومَنْ يَكفُرْ بهِ مِنَ الأحزاب فالنّارُ مَوعدُه. فلا تَكُ في مِريَةٍ مِنْه، إنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّك، وَلكِنَّ أكثَرَ النّاسِ لا يُؤمِنون﴾ [سورة هود: ١٧].

وهذه التوجيهات القرآنيةُ ليستْ خاصةً بالرسول - ﷺ - لأن من قواعد التفسير أن خطاب الرسول عليه السلام خطابٌ لأمته، ما لم يقم دليلٌ على التخصيص - ولكنها موجهةٌ لكل مسلم حتى قيام الساعة.

وما أحوجَ المسلمَ المعاصر الذي يواجهُ التحديَ العالميَّ الخطير، إلى إطالةِ الوقفة أمام هذه التوجيهات القرآنية حول الثبات على الثوابت، وتلقّي إشاراتها وتقريراتها وإيحاءاتها، ليزداد ثباتاً على ثبات.

الثبات على الثوابت وحصول الأذى والمصاعب

إن الثباتَ على الثوابت يحتاجُ إلى همةٍ ومجاهدة، وصَبر ومُصابرة. وإن هذا الثباتَ قد يجرُّ على صاحبِه الأذى، ويوقُع به المصاعب، فلا بدَّ للمسلم الثابت أن يوطِّن نفسه على ذلك، وأن يعزِم على أن يتحمل كلَّ ما يصيبُه في سبيل الله، وأن يستعلي على الأذى والمصاعبِ بايمانه، وأن يستعين على ذلك بربه.

إن الايذاء والفتنة والابتلاء من سماتِ طريق الثابتين السائرين إلى الله، منذُ أول تاريخ البشرية وحتى قيام الساعة. لم يسلم من ذلك نبيٌ كريم من الأنبياء ولا مؤمنٌ من أتباع الأنبياء، ولا مصلحٌ سائرٌ على طريق الأنبياء.

قال تعالى: ﴿ألم. أَحَسبَ النّاسُ أنْ يُتركُوا أنْ يقولوا آمنّا، وَهُمْ لا يُفتنون. وَلَقد فَتنّا الذينَ مِنْ قَبْلهم، فَليعْلمَنَّ الله الذّين صَدقوا، وَليعلمَنَّ الكاذِبين﴾ [سورة العنكبوت: ١ - ٣].

وقال تعالى: ﴿أمْ حَسبتُمْ أنْ تَدْخُلوا الجنَّة، وَلَما يأتِكُمْ مَثلُ الذينَ خَلوْا مِنْ قَبلكُم: مَسَّتهُمُ البأساءُ والضَّراء، وَزُلزلوا.

حتى يقولَ الرسولُ وَالذّينَ آمنوا مَعَه: متى نَصرُ الله؟ ألا إنَّ نَصر الله قريبْ﴾ [سورة البقرة: ٢١٤].

ما من الأنبياء من نبيٍّ إلا أُوذي وابتُلي، فواجه ذلك بالصبر والدعوة والثبات: ﴿قَدْ نَعلم إنَّهُ لَيحْزُنُك الذّي يقولون. فإنهم لا يُكذِّبونَك، وَلكِنَّ الظَّالمين بآيات الله يجحدون. وَلقد كُذبتْ رُسُلٌ مِنْ قَبلِك، فصبروا عَلى ما كُذِّبوا وَأوذوا، حَتى أتاهُمْ نَصرُنا، ولا مُبدِّلَ لكلماتِ الله. وَلقد جاءَكَ مِنْ نبأ المُرسلينْ﴾ [سورة الأنعام: ٣٣ - ٣٤].

والمسلمُ المعاصرُ السالكُ في الطريق إلى الله، الملتزمُ بالثوابت بصبر وثبات، يقتدي في ذلك بالأنبياء، وبثباتِ أتباعهم المؤمنين. إنه يقتدي بالسحرة، الذين جاءوا إلى موسى عليه السلام، مرتزقةً وجنوداً لفرعون، وأرادوا هزيمة موسى عليه السلام والتغلب عليه، فلمّا بان لهم الحقّ، وعرفوا أن موسى رسولُ الله، سجدوا لربِ العالمين، وآمنوا بموسى وهارون - عليهما السلام - فتهدَّدهم فرعون وتوعَّدهم، وصبَّ عليهم من أصنافِ التعذيب الكثير، ولكنهم قابلوا كل ذلك بصبر وثبات، فتحمَّلوا كلَّ ما لاقوا في الطريق من أذىً واضطهاد وفتنةٍ

ومصاعب، وتحدوا فرعون وسلطانه، واستعلوا على تهديده ووعيده.

﴿فألُقِيَ السَّحرةُ سُجَّداً، قالوا: آمَنا بربِّ هارونَ وموسى. قال: آمنْتُم بهِ قبْلَ أنْ آذَنَ لكُمْ! إنَّه لكبيركُمُ الذي عَلمكُمُ السِّحرْ، فَلأقَطِّعنَّ أيْديَكُمْ وَأرجُلكُم مِنْ خلافْ، ولأصلِّبَنَّكُمْ في جُذوعِ النَّخلِ، وَلتعلمُنَّ أيُّنا أشدُّ عَذاباً وأبقى قالوا: لَنْ نُؤثِرَكَ على ما جاءَنا من البيناتِ وَالذي فطرنا، فَاقضِ ما أنْتَ قاضٍ. إنَّما تَقضي هذه الحياة الدُّنيا. إنّا آمنّا برَبِّنا لِيغفِرَ لنا خطايانا، وَما أكرهتنا عَليهِ مِنَ السحر، وَالله خيرٌ وأبقى. إنَّهُ مَنْ يأتِ رَبَّهُ مجرماً، فإنَّ لَهُ جَهنم، لا يموتُ فيها ولا يحيى، وَمَنْ يأتِهِ مُؤمناً قَدْ عَمِلَ الصّالحِات، فأولئِكَ لهُمُ الدَّرجاتُ العُلى. جُناتُ عَدْنٍ تجري مِنْ تحتها الأنهارُ خالِدينَ فيها، وَذلكَ جزاءُ مَن تَزكى﴾. [سورة طه: ٧٠ ـ ٧٦]٧.

المسلمُ المعاصر مطالبٌ ـ مِن قبل ربه ورسوله ودينه ـ بتحمل كلِّ ما يُصيبه في سبيل الله، مطالبٌ بصدق ما عاهد الله عليه، وعدم التبديلِ والتغييرِ والتحريفِ، وعدمِ التنازلِ عن الثوابت، أو

المساومةِ عليها، أو «استهوال» الطريق، و«استصعابِ» السير فيه، واستكثارِ الثمن والبذل.

مطالب بذلك ليصدقَ عليه وصفُ الله لعباده المجاهدين الصادقين الثابتين، وثناؤه على الرجال الرجال، وذلك في قوله تعالى: ﴿مِنَ المؤمنين رجالٌ صَدَقوا ما عاهَدوا الله عَليه، فَمنهُمْ مَنْ قَضى نَحبه، وَمنْهُمْ مَنْ يَنتظِر. وما بَدَّلوا تبديلا. ليجزيَ الله الصّادِقينَ بِصدْقِهم﴾. [سورة الأحزاب: ٢٣ - ٢٤].

أساس هذه الثوابت

الثوابتُ للمسلم كثيرة، وتتوزَّعُ مساحةً واسعةً من حياته وكيانه. وتُوجِّه كلَّ حركاتِه وأعماله.

لكنَّ أساسَ هذه الثوابت الذي تنتج عنه، هو معرفةُ المسلم لنفسه وطريقِه، ووقوفُه على هدفِه ووسيلته، وملاحظته لنهايته ومستقرِّه.

لا للنظرة العبثيَّة للحياة:

الانسانُ ليس مخلداً في هذه الحياة، فكلُّ مخلوق سيموت.

والإنسانُ في هذه الدنيا موجودٌ لمهمةٍ وغاية، وله وظيفةٌ محددة.

وبعضُ الناس - وهم الكافرون الضائعون - لا يعرفون معنى وجودهم. ولا غاية حياتهم، وإنما يشعرون «بعبثية» هذه الحياة: **﴿وَقالوا ما هي إلا حياتُنا الدُّنيا نموتُ ونحيا، وَما يُهلكُنا إلاّ الدَّهر. وَما لَهُمْ بذلكَ مِنْ عِلم، إنْ هُمْ إلا يظُنون﴾**. [سورة الجاثية: ٢٤].

وقد أبطل القرآنُ هذه النظرة «العبثية» للحياة، الصادرةَ عن

الكفـار: ﴿أفحسبتُمْ أنَّما خَلقناكُم عَبثاً؟ وَأنَّكُمْ إليْنا لا تُرجَعونَ؟ فتعالى الله الملكُ الحَقّ﴾. [سورة المؤمنون: ١١٥ ـ ١١٦].

وبيَّن للانسانِ أن الله لن يتركهُ سُدىً ضائعاً مهملاً، وذكَّره برعايةِ الله منذُ بدايةِ خَلقه وتكوينه حتى نهايةِ حياته: ﴿أيَحْسَبُ الإنسانُ أنْ يُتركَ سُدى؟ ألَمْ يَكُ نُطفةً مِنْ مَنيٍّ يمْنى؛ ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخلَقَ فَسوى، فجعل مِنهُ الزَّوجيَنِ الذَّكر والأنثى. أليس ذلك بِقادرٍ على أنْ يُحيي الموتى؟﴾ [سورة القيامة: ٣٦ ـ ٤٠].

ولا للنظرة التجارية المصلحية للحياة:

كما أنَّ الحياة ليست عبثاً، وأن الانسانَ لم يُخلق فيها سدى، كذلك يبيِّن القرآن أن الحياة للمسلم ليست انتهازية، ولا تقوم على مصالحه الذاتية ومنافعه الخاصة، يحققها على حساب دينه وقيمه ومبادئه وثوابته.

لا يجوزُ للمسلم أن يجعَل دينه وأفكارهُ والتزامه «سِلعةً» تجارية، يساوِم عليها، ويبيعُها مقابل ثمنٍ قليل من المنافع والمصالح والمكاسب، ما كان الدينُ يوماً ما سلعةً للبيع أو المبادلة أو المساومة!! وما كانت المبادىء والحقائقُ والثوابتُ التي يقدِّمها هذا

الدين للمسلم «مادةً» يبيعُها بعَرَضٍ من الدُّنيا قليل.

لقد ذَمَّ الله الأحبارَ والرهبانَ والربانيِّين من اليهودِ والنصارى، الـذين نظروا لمبـادئهم هذه النظرة «التجارية المصلحية» فساوَموا عليها، واشتروا بها ثمناً قليلاً.

قال تعالى: ﴿فَويْلٌ لِلذينَ يَكتُبونَ الكتابَ بأيديهمْ. ثُمَّ يقولونَ: هذا مِنْ عندالله. ليشتروا بِهِ ثمناً قليلاً. فَويْلٌ لَهُم مِمْا كَتبتْ أيديهم، وَوَيْلٌ لَهُم مَمْا يَكسبون﴾ [سورة البقرة: ٧٩].

وحذَّر الله المسلمين من المتاجرة بدين الله ومبادئه الثابتة، بعد ما بيَّن لهم بعض مصاعب الثبات:

قال تعـالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ في أمـوالِكُمْ وأنْفُسكُمْ، وَلَتسمعُنَّ مِنَ الذينَ أوتوا الكتاب مِنْ قَبلكُمْ وَمنَ الذّين أشركوا أذىً كثيرا، وإنْ تصبروا وتتقوا، فإنَّ ذلِكَ منْ عَزْم الأمور. وإذْ أخذ الله ميثاقَ الذينَ أوتوا الكتاب لَتُبيننَّهُ للنّاسِ ولا تكتمونه. فَنبذوهُ وَراءَ ظهورِهِمْ، واشْتروْا به ثَمناً قليلاً. فَبئسَ ما يَشترون﴾ [سورة آل عمران: ١٨٦ - ١٨٧].

وحذَّر الله تُجارَ المبادىء، البائعين للثوابت، الكاتمين للحق،

من سوء العذاب، ومن النار التي اشتروها: ﴿إنَّ الذين يَكتمونَ ما أنْزلنا مِنَ البيناتِ وَالهدى، مِنْ بَعدِ ما بَيَّناهُ للنّاسِ في الكتابِ، أولِئكَ يَلعنُهُم الله، ويَلعنُهُمُ اللاعنون. إلا الذين تابوا وَأصلحوا وَبينوا، فأولِئكَ أتوبُ عَليهمْ، وأنا التَّوابُ الرحيم﴾ [سورة البقرة: ١٥٩ ـ ١٦٠].

﴿إنّ الذّينَ يكتُمونَ ما أنْزَلَ الله من الكتاب، وَيشترون بَهِ ثَمناً قليلاً. أُولئكَ ما يأكُلونَ في بُطونهم إلا النار، ولا يُكلمهُم الله يَومَ القيامةِ ولا يُزكيهم، ولهُم عَذابٌ أليم. أولئك الذّين اشتروا الضَّلالة بالهُدى، والعذابَ بالمغفرة، فَما أصْبَرهُمْ عَلى النّار؟ ذلِكَ بأنَّ الله نَزلَ الكتابَ بالحَقّ﴾. [سورة البقرة: ١٧٤ ـ ١٧٦].

تهديفُ المسلم لحياته:

أساسُ الثوابتِ الضروريةِ للمسلم المعاصر هوُ: أن يجعلَ له هدفاً معيَّناً، وأن يجعلَ لوجوده غايةً عظمى، وأنْ يجعل لحياته رسالةً ساميةً. وأنْ يستحضر هذا الهدف معه في أيِّ زمان ومكان، وأنْ يسلكَ الوسائلَ والسبلَ الكفيلة بتحقيقِ ذلك الهدف.

لا يجوزُ للمسلم المعاصر، الذي يعيشُ التحدي العالميَّ

الكبير، أن يعيش هكذا، ضائعاً مُهملاً، أو مشغولا بالطعام والشراب، والجنس والشهوة، والمالِ والجاه والمنزلة. لا يجوزُ أن يكون شعارُهُ في الحياة قول الشاعر:

إنما الدنيا طعامٌ وشرابٌ ومَنامُ فإذا فاتَكَ هذا فعلى الدُّنيا السلامُ

بل المسلمُ صاحبُ رسالةٍ وهدف، إنّه «يُهدِّفُ» حياته، ويجعلُها «وَقْفاً» على هدفه. ولسانُ حالِه قول الشاعر:

تهونُ علينا في المعالي نفوسُنا

ومَنْ يَخطبُ الحسناءَ لم يغلِهِ المهرُ

ولقد أشار القرآن إلى «حيوانية» الكفار الذين هدفهم هو الأكلُ والشربُ والاستمتاع بالشهوات: ﴿وَالذين كفروا يَتمتعونَ ويأكُلونَ كَما تأكُلُ الأنعام. وَالنّارُ مَثوىً لَهُمْ﴾ [سورة محمد: ١٢].

ودعا القرآنُ المسلم إلى «تهديفِ» حياته، ودلَّه على وسائِله لتحقيق ذلك الهدف، في عباراتٍ جامعة: ﴿يأيُّها الذّينَ آمنوا: ارْكعوا وَاسْجُدوا، واعبدُوا رَبَّكُمْ، وَافْعلوا الخيرَ، لَعلَّكُمْ تُفلحون، وَجاهدوا في الله حَقَّ جهاده، هُو اجتباكُمْ وَما جَعَل عَليْكُمْ في الدّينِ مِنْ حَرج، ملَّةَ أبيكُمْ إبراهيم، هُوَ سَماكُمُ المُسلمينَ مِنْ قَبل، وَفي

هذا ليكونَ الرسَّولُ شهيداً عليْكُمْ، وَتكونوا شُهداءَ على النّاس، فأقيموا الصَّلاةَ، وآتوا الزَّكاةَ، واعتصموا بالله، هُوَ مَولاكُمْ، فَنعم المولى، وَنِعم النَّصير﴾ [سورة الحج: ٧٧ - ٧٨].

هدفُ المسلم ووسيلته:

قد يخطىء بعضُ المسلمين في معرفة هدفه، ووسيلته لتحقيقه، ولذلك مَنَّ الله علينا، بأنْ حَدَّد لنا الهدفَ الذي نسعى إليه، وحَدَّدَ لنا الوسيلة التي نسلكُها للوصول إليه، وطالبنا بالالتزام بذلك.

هدف المسلم المحدد:

إن هدف المسلم المحدَّد هو: أنْ يحقق رضوانَ الله، وأنْ ينالَ محبته، وذلك بأنْ ينجيه الله من عذاب النار، وأنْ يَمُنَّ عليه بدخول الجنة، وأنْ يُنعمَ عليه بالرضوانِ والنظرِ إلى وجهه الكريم - سبحانه -.

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائقةُ الموْت. وَإنَّما تُوفَّونَ أُجوركُمْ يَوْمَ القيامة، فَمن زُحزحَ عَنِ النّار، وأُدْخِلَ الجنَّة فقد فَاز، وَمَا الحياةُ الدُّنيا إلا متاعُ الغرور﴾ [سورة آل عمران: ١٨٥].

وقال الله تعالى: ﴿قالَ الله: هذا يَومُ يَنْفَعُ الصّادِقينَ صِدقُهُمْ. لَهُمْ جَنـاتٌ تَجري مِنْ تَحتها الأنهارُ، خَالِدينَ فيها أبداً. رَضي الله

عَنْهُمْ وَرضوا عَنْه ذَلكَ الفوزُ العَظيم﴾. [سورة المائدة: ١١٩].

وأثنى الله على مَنْ جعل هَدفه نيلَ رضوان الله، فباعَ نفسه لتحقيق هذا الهدف: ﴿وَمِن النّاسِ مَنْ يَشري نَفْسَهُ ابتغاءَ مَرضاتِ الله، والله رَؤوفٌ بالعِباد﴾. [سورة البقرة: ٢٠٧].

وما أعظم هذه البشرى التي زفها لنا رسول الله - ﷺ - :

روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن النبيَّ ﷺ قال: «إن الله يقولُ لأهلِ الجنة: يا أهلَ الجنة! فيقولون: لَبَّيكَ ربَّنا وسَعديك، والخيرُ في يديك. فيقول: هل رضيتمُ؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك. فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا ربّ: وأيُّ شيءٍ أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أحلُّ عليكم رضواني، فلا أسخطُ عليكم بعده أبداً»[1].

وماذا تريدُ أيها المسلم المجاهدُ الثابت أعظمَ من هذا؟ إنَّ هدفَك هو نيلُ رضوان الله، إنه أساسُ الثوابت التي تثبتُ عليها في

---

(١) صحيح مسلم. كتاب الجنة رقم (٥١) باب إحلال الرضوان على أهل الجنة رقم (٢) حديث رقم (٢٨٢٩).

الحياة، فلا ترضَ عن رضوان الله بديلاً، ولا تتحوَّل عنه تحويلاً. وناجِ رَبَّكَ دائماً بهذه العباراتِ الايمانية النديّة:

فلَيْتـك تَحـلو وَالـحياةُ مَريرةٌ ... وَليتـكَ تَرْضى والأنـامُ غِضابُ
وَلَيْت الـذّي بَيني وَبينكَ عامِرٌ ... وَبيـني وَبـين العـالمين خَرابُ
إذا صَحَّ مِنـكَ الـوُدُّ فالكُلُّ هَيِّنٌ ... وَكُـلُّ الـذّي فَوقَ التُّرابِ ترابُ

وسيلةُ المسلم المحدَّدة لتحقيق هدفه:

وكما حدَّد الله للمسلم هدفه، كذلك حدد له الوسيلة لتحقيقه، ورسَمَ له الطريقَ المستقيم الذي يوصلُه إليه. وبيَّن له معالم الطريق، وحذَّره من عوائقه ومعوِّقاته.

إن الوسيلة المحدَّدة هي «العبادةُ الحقة» لله سبحانه، وهي وظيفةُ كل المخلوقاتِ من الملائكةِ والانسِ والجنِّ وغيرهم. إنها العبادةُ بمفهومها الإسلامي الواسع الشامل، الذي يتسْع لكل لحظةٍ ولفظة، وخطوة وخطرة، وفكرة وعبرة، في أيِّ زمان ومكان.

قال تعالى: ﴿وما خَلقْتُ الجنَّ والإِنْس إلا ليعبُدون. ما أُريدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْق، وما أُريدُ أنْ يَطعمون﴾ [سورة الذاريات: ٥٦ ـ ٥٧].

وقـال تعالى: ﴿وَما أُمِروا إلا ليعبدوا الله، مُخلصينَ لَهُ الدّينَ،

حُنفاء، وَيقيموا الصَّلاة، وَيؤتوا الزكاة. وذلِكَ دينُ القيمة﴾ [سورة البينة: ٥].

وقال تعالى: ﴿وأنَّ هذا صِراطي مُستقيماً فاتبعوه. ولا تتبعوا السُّبُلَ فَتفرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبيلهِ﴾ [سورة الأنعام: ١٥٣].

خطَّة المسلم والنفس التواقة:

إن المسلم مطالبٌ أن ينظِّم حياته وفق هدفهِ الثابت ووسيلته الثابتة، بأن يجعل لنفسه خطة واضحةً بيِّنة، واضحة الملامح، محدَّدة الخطوات، يراعي فيها تحقيق هدفه، وتنفيذَ وسيلته، ويحاسبُ نفسه عليها، ويأخذها على الالتزام بها.

ويحرصُ على أن يكونَ في خطته ذا نفسٍ تواقة، بأن يضع لنفسه مراحلَ متدرجة، كلُّ مرحلة تسلِّم للتي تليها، بحيث تسلِّم المرحلةُ الأخيرةُ للجنة والفوز برضوانِ الله فيها.

ويُلزِمُ نفسه أن تكون «تواقة» في تنفيذ مراحل خطته، بحيثُ كلما نفذت قسماً منها ووصلت إلى نهايتها، تاقت - برغبة وهمة وجهد - إلى التي تليها، وهكذا يبقى «تواقاً» حتى يفارق هذه الدنيا.

ولْيقتد بامام الزاهدين - ما عدا رسول الله ﷺ وخلفائه الكرام - وسيدهم الخليفة الزاهد «عمر بن عبدالعزيز» - رضي الله عنه -.

روى وزيرُه الناصحُ المخلص - رَجاءُ بْن حَيوة - قال: كنتُ مع عمر بن عبدالعزيز لما كان والياً على المدينة، فأرسلني لأشتري له ثوباً. فاشتريته له بخمسمائة درهم، فلما نظر فيه قال: هو جيّد لولا أنه رخيص الثمن!

فلما صار خليفة للمسلمين، بعثني لأشتري له ثوباً، فاشتريته له بخمسة دراهم! فلما نظر فيه قال: هو جيد لولا أنه غالي الثمن!

قال رجاء: فلما سمعتُ كلامه بكيتُ.

فقال لي عمر: ما يبكيك يا رجاء؟

قلت: تذكرت ثوبك قبل سنوات وما قلتَ عنه.

فكشف عمر - ذو النفس التواقة - لرجاء بن حيوة، سر هذا الموقف، وقال: يا رجاء: إنّ لي نَفساً تواقة، وما حققتُ شيئاً إلا تاقت لما هو أعلى منه. تاقت نفسي إلى الزواج من بنتي عمي فاطمة بنت عبدالملك فتزوجتها. ثم تاقت نفسي إلى الامارة فوليتها، وتاقت نفسي إلى الخلافة فنلتها. والآن يا رجاء تاقت نفسي إلى الجنة، فأرجو أن

أكون من أهلها» .

وهكذا أيها المسلم المجاهد . لتكُنْ نفسك تواقة إلى الجنة ، ولا تنشغل عن تلك الجنة بزخارف هذه الحياة الدنيا ، ولا تتركها تشغلك عن هدفك ، أو تفسد عليك وسيلتك ، أو تحرمك من «توقك» وسعيك وجهدك .

خطوط ثابتة في شخصية المسلم

نشيرُ فيما يلي إلى أبرز الخطوط الثابتةِ المستقرة في شخصية المسلم. وهذه الخطوطُ ترمزُ إلى الثوابت الأصيلة الثابتةِ في كيانه وحياته. وقد بيَّنتْ هذه الخطوط آياتُ القرآن الكريم، ورسمتها سيرةُ رسول الله - ﷺ - وحياةُ صحابته المجاهدين.

إن أبرز ما يميزُ المسلمَ الملتزم بدينه، الداعي إليه، الثابت عليه ما يلي:

١ - هو عابد:

فوظيفتهُ ورسالتهُ في الحياةِ هي العبادةُ لله وحده سبحانه - العبادةُ بمفهومها الاسلاميِّ الواسع الشامل - إنه لا يحققُ وجوده ولا إنسانيته، ولا سعادته وحريته وكرامته إلا باخلاص العبودية لله وحده، فنفسه «عِزُّها الحقيقيُّ في ذُلِّها الكامل لربه» ولذلك فهذا المسلم هو «العبدُ الحر». وعبادته لله تستغرقُ عليه كل لحظاتِ ودقائق وساعاتِ نهاره وليله، إنه عابدٌ لله لمدة أربعٍ وعشرين ساعةً يومياً.

إنه عابدٌ لله في المسجدِ والبيتِ والمؤسسةِ والعملِ والوظيفةِ والشارع، وأينما توجَّه أو سارَ أو أقام.

إنه عابدٌ لله في حياته التعبدية ـ الشعائر ـ وفي شرائعه وقوانينه، وعـابـدٌ لله في حياتـه التعليمية والعلمية والسياسية والاقتصـادية والاجتماعية والسلوكية والعائلية، في حياته العامة والخاصة. وغير ذلك.

إن أبرزَ لون «يلوِّنُ» حياته هو العبادةُ لله، وإنَّ أمتن خطٍّ ثابتٍ من ثوابته هو العبادةُ لله.

ما أجملَ حياةَ هذا المسلم عندما يُلوِّنُها بلون العبادة، وما أسعد حياته عندما يُطعِّمها بطعم العبادة، وما أصفى وأوضح حياته عندما ينظر لها بمنظارِ العبادة، ويُنفذها من زاوية العبادة لله وحده سبحانه.

٢ ـ هو مجاهد:

ومن ألزم الثوابت له أنه مجاهد: ﴿وجاهِدوا في الله حَقَّ جهاده﴾ [سورة الحج: ٧٨] ﴿وَالذين جاهَدوا فينا لنهدِيَنَّهُمْ سُبُلنا وإنَّ الله لَمعَ المُحسنين﴾ [سورة العنكبوت: ٦٩].

هناك «فراغاتٌ» في حياةِ وشخصيةِ المسلم لا يمكنُ أن تُملأ إلا بالجهادِ في سبيل الله! وهناكَ «تقصيراتٌ» في حياته وسلوكه لا تُتلاشى إلا بالجهاد، وهناك «مقاماتٌ» ومنازلُ في الجنة عالية، لا

ينالُها إلا بالجهاد: ﴿لا يَسْتَوي القاعِدونَ مِنَ المؤمنينَ ـ غَيْرُ أُولي الضَّرَر ـ وَالمجُاهدونَ في سَبيلِ الله بأمْوالِهِمْ وأنفُسِهِمْ، فَضَّل الله المُجاهِدينَ بأمْوالِهِمْ وأنْفُسِهِمْ عَلى القاعدينَ دَرَجَة ـ وكُلًّا وَعدَ الله الحُسنى ـ وَفضل الله المجُاهِدين عَلى القَاعِدينَ أجْراً عظيماً. درجَاتٍ مِنْهُ وَمغفرَةً وَرَحمة﴾ [سورة النساء: ٩٥ ـ ٩٦].

ويبقى المؤمنُ ثابتاً على «الجهاد» حتى تفارقَ روحُه جسدَه، ليصدُقَ عليه قوله تعالى: ﴿مِنَ المُؤمنينَ رجالٌ صَدَقوا ما عاهَدُوا الله عَلَيْه. فَمنْهُمْ مَنْ قَضى نَحبهُ، وَمنْهُمْ مَنْ يَنتظِر، وَما بَدَّلوا تَبديلًا﴾ [سورة الأحزاب: ٢٣].

ونذكِّرُ بأنَّ للجهادِ صوراً وحالاتٍ كثيرة، وله ميادينَ وأساليب منوعة. أعلاها حملُ السلاح وقتالُ الكفار، لكن دونَ هذه المنزلة منازلُ ودرجاتٌ جهادية، صاحبها مجاهدٌ في سبيل الله مع المجاهدين: إنّ كلَّ جهدٍ لدين الله جهاد! كلُّ كلمةٍ صادقة جهاد، وكلُّ خطوةٍ راشدة للدين جهاد، وكلُّ خطبةٍ أو محاضرة للدعوة جهاد، وكلُّ ورقةٍ أو نشرة أو رسالة في سبيل الله جهاد ـ فاللهم تقبلْ منّا جُهدنا وجهادنا! ـ وكلُّ ثباتٍ على دين الله جهاد، وكلُّ موقفٍ رجوليٍّ إيمانيٍّ مع اعداءِ الدين جهاد!...

إن الجهاد عظيمٌ مباركٌ. لأنه لا تحلو الحياةُ إلا بالجهاد، ولا تزكو النفوسُ إلا بالجهاد، ولا تتضاعفُ الهمم إلا بالجهاد، ولا تقوى العزائمُ إلا بالجهاد، ولا تتفتح القرائحُ إلا بالجهاد، ولا تتميزُ الصفوف إلا بالجهاد، ولا تنتشرُ الدعوة إلا بالجهاد، ولا يُهزمُ الأعداء إلا بالجهاد، ولا ينتصرُ الحق إلا بالجهاد، ولا تنالُ الشهادة إلا بالجهاد، ولا يتضاعفُ الأجر إلا بالجهاد.

وصدقَ الله حيث يقول: ﴿ما كانَ لِأهْلِ المدينة وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأعْرابِ أن يَتخلفُوا عَنْ رسول الله، ولا يَرغْبوا بأنفسهم عَنْ نَفسه، ذلِكَ بأنَّهُمْ لا يصيبُهُم ظمأٌ ولا نَصبٌ ولا مَخمصةٌ في سبَيل الله، ولا يَطئونَ مَوْطئاً يغيظُ الكُفّار، ولا ينالون مِنْ عَدُو نَيلاً، إلا كُتبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالح إنَّ الله لا يُضيعُ أجرَ المُحسِنين. ولا يُنفِقونَ نَفَقةً صغيرةً ولا كبيرة، وَلا يَقْطعونَ وادياً، إلا كُتِبَ لَهُمْ. ليجزِيَهُمُ الله أحَسنَ ما كانوا يَعملونْ﴾ [سورة التوبة: ١٢٠ - ١٢١].

وصدق القائل:

قِفْ دونَ رأيكِ في الحياةِ مُجاهِدا   إنَّ الحياةَ عقيدةٌ وجهادُ

٣ - هو زاهد :

المسلم زاهدٌ في هذه الدنيا، لأنه يرنو ببصرهِ نحوَ الجنة، ولذلك لا تُلهيهِ الدنيا بما فيها من متعٍ وفتنٍ وشهوات.

إنه يزهدُ في الدنيا لأنه يزنها بميزانه الايماني، ويقارنُ بينها وبين الآخرة، فيختار الباقي على الفاني. لقد بيَّن له القرآن، «قيمة» الدنيا بالقياس إلى الآخرة، في مثل قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاس حُبُّ الشَّهواتِ مِنَ: النِّساء، وَالبنينَ، والقناطير المُقنطرةِ مِنَ الذَّهبِ والفضَّة، والخيلِ المُسوَّمةِ، والأنعام، وَالحرْث. ذلِكَ مَتاعُ الحياةِ الدُّنيا. والله عندهُ حُسنُ المآب. قلْ: أؤنبئكُمْ بخيرٍ مِنْ ذلكم: للذينَ اتقوا عند رَبِّهم جَنَّاتٌ تجري مِنْ تحتها الأنهار، خالدين فيها، وأزاوجٌ مُطهَّرة، ورضوانٌ من الله﴾ [سورة آل عمران: ١٤ - ١٥].

وفي مثل قوله تعالى: ﴿إعلْموا أنَّما الحياةُ الدُّنيا: لعبٌ وَلهوٌ، وَزينَةٌ، وتفاخرٌ بَينكُمْ، وتكاثرٌ في الأموالِ والأولاد. كَمثلِ غيثٍ أعجبَ الكُفّارَ نباتهُ، ثُمَّ يَهيج فتراهُ مُصفرّا، ثُمَّ يكونُ حطاماً. وفي الآخرةِ: عذابٌ شديد، وَمغفرةٌ مِنَ الله وَرضوان، وَما الحياةُ الدُّنيا إلا متاعُ الغُرور. سارِعوا إلى مغفِرةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجنةٍ عرضها كَعرضِ

السَّماءِ والأرض، أعِدَّتْ لِلذين آمنوا بالله وَرُسله . ذلك فَضلُ الله يُؤتيه مَنْ يشاء﴾ [سورة الحديد: ٢٠ ـ ٢١]. .

ومن زهدِه في الدنيا وزخارفها أنه لا ينشغلُ بها عن الآخرة، وأنه لا يؤْثِـرها على الآخرة، وأنه لا يسمحُ لأهلها وما فيها أن يُعيقوهُ عن تحقيق هدفه في الآخرة، وأنه يستعلي على كل ما فيها، وأنه لا يسمح للذةٍ منها أو شهوةٍ أو صورةٍ أو فتنة أن تُشغلَ فكره وأحاسيسه ومشاعره وحياته.

إن المؤمن عنـدما يزهدُ في الدنيا ومُتعِها وملذّاتها، سيبقى في مأمنٍ من الخضوع للضغوط، أو الاستجابةِ للاغراءات، أو الموافقة على المساومات والمداهنات، التي يبذلُها له عبيدُ الدنيا أعداء الدين.

إن زهده في الدنيا سيمنحه زاداً كبيراً من الثبات على ثوابته، لأن أعداءه لن يجدوا لهم عليه سبيلاً، ولا إليه منفذاً أو طريقاً! بماذا يساومونه ويُغرونه ويضغطون عليه؟ أبالدنيا وزخارفها؟ لقد زهد فيها فكيف يستجيبُ لهم!

وليس معنى زهدِه في الدنيا، أن يُحرم على نفسه الاستمتاع بالمباح من شهواتها وملذاتها وخيراتها وطيباتها، وليس معنى الزهدِ أن يكـونَ فقيراً مُعـدَمـاً، ينامُ في كوخ، ويلبسُ الملابسَ الرثة، والأسمال البالية.

إن زهده يتحققُ مع حصوله على مباحاتها وطيِّباتها، فقد يكونُ «مليونيراً» زاهداً، أو «مالكاً» كبيراً زاهداً، وقد يبني أفخم المنازل، ويستخدمُ أجودَ الأثاث، ويركبُ أحدث السيارات، ويلبسُ أغلى الملابس، ويعملُ في أرقى الوظائف، وهو مع ذلك زاهد. بحيثُ يجعلُ هذا كلَّه في يده، لا في قلبه، فيلقيه كلَّه جانباً إذا تعارضَ مع دينه، أو تناقض مع ثوابته!

الزهدُ زهدان:

زهـدُ الغنيِّ التقيِّ الـواجـد! وزهـدُ الفقيرِ المحرومِ الفاقد! والمؤمن على كلتي حالتيه زاهد!

٤ ـ هو صابر:

الصبرُ معلمٌ بارز من معالم الطريقِ إلى الله، وخطٌ متين من خطوط الشخصية الاسلامية الثابتة.

وأفقُه فسيح، ومظاهرهُ منوَّعة، وصَورُه

والصبرُ مجالُه واسع وعلى تَرْك المعصية، وعلى شدَّة الحالة،
عديدة. ، طولِ الطريق، وعلى تأخُّر الاستجابة،

الصبرُ على الطاعة، فتن الدنيا، وعلى انتفاش الباطل، وعلى
وعلى مشقَّة السير، وعلىة المعركة، وعلى ألمِ المحنة، وعلى كثرةِ
وعلى بطءِ العلاج، وعلى النفس، وعلى وساوسِ التثبيط، وعلى
عنفِ المواجهة، وعلى قو. . وعلى. . مما يجدُه ويواجهه المسلم
التضحيات، وعلى ضعف
هجمةِ المساومات، وعلى ثوابته يعلمُ أن الصبرَ أقوى زاد، وأنفذُ
في طريقه. ، ويتسلحُ به في مواجهة أعدائه.

والمسلمُ الثابتُ علصبر والمصابرةِ - وهي مفاعلةٌ من الصبر -
سلاح، فيتزوَّدُ به لطريقهسبة لله. وفي ذلك يُنفِّذُ أمر الله تعالى: ﴿يا
وهـو يقـرنُ بين الصروا وَصابِروا وَرابِطوا. وَاتَّقوا الله، لَعَلَّكُم
والمرابطة الصابرة المحتمران: ٢٠٠].
أيُّها الـذّين آمنوا: اصْ وأتباعُهم أعداءهم بسلاح الصبر، وقطعوا
تُفلحون﴾ [سورة آل عـ

لقـد واجـه الأنبياءُ

طريقهم إلى الله صابرين مصابرين: ﴿وَلَقد كُذِّبَتْ رُسلٌ مِنْ قَبلِك، فَصبروا على ما كُذِّبوا وأوذوا، حتى أتاهُمْ نَصرُنا﴾ [سورة الأنعام: ٣٤].

والصابرُ أجرُه مضاعفٌ عند الله، كما قال الله: ﴿إنَّما يُوفَّى الصّابِرونَ أجْرهُمْ بِغَيْر حسابْ﴾ [سورة الزمر: ١٠].

وَجعل القرآنُ الصبرَ من أقوى العُدَد في مواجهةِ الأعداء: ﴿يا أيُّها الذّين آمنوا: إذا لَقيتُمْ فِئةً فَاثْبُتوا. وَاذكرُوا الله كَثيراً لعَلكُمْ تُفلِحون. وَأطيعوا الله وَرَسولَه. وَلا تَنازَعوا فَتَفْشَلوا وَتَذْهبَ ريحُكُمْ. واصْبِروا، إنَّ الله مَعَ الصّابرين﴾ [سورة الأنفال: ٤٥ - ٤٦].

والصبرُ في حقيقته نوعان:

صبرٌ ايجابي. وصبرٌ سلبي.

الصبرُ السلبيّ هو صبرُ اليائسِ العاجز القانط، الذي فقدَ الثقة، بالمستقبل، ولم يَرَ للجهدِ ولا للدعوةِ ولا للجهادِ ثمرةً ولا فائدةً ولا نتيجة، فجلس يندبُ حظَّه، ويلعن زمانه، ويجترُّ حسراته وآلامه، وينتظرُ نهاية عمره، ودنوَّ أجله، وصار يطلب من الله أن يُصبره في

ما تبقى من عمره.

وهذا الصبرُ مرفوض، حيث لا زاد فيه، ولا مدد منه، ولا ينفع صاحبه.

الصبرُ الايجابي: وهو ما وصفهُ الله في القرآن بالصبر الجميل. الصبرُ الايجابي الجميلُ هو صبرُ يعقوب عليه السلام، الذي استخدمه وهو يعيشُ الأملَ المشرقَ البسامَ في لقاء ابنه يوسف ـ عليه السلام ـ فكان الصبرُ الجميلُ عنده من أقوى البواعث على لقاءه به.

بالصبر الجميلِ واجهَ كَذِبَ المتآمرين: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أنفُسُكُمْ أمْراً، فَصبْرٌ جَميل. والله المُستعانُ عَلى ما تصِفون﴾ [سورة يوسف: ١٨].

وبالصبر الجميل أمر أولاده بالبحث عن أخوَيْهم: ﴿قال: بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أنفُسُكُمْ أمْراً، فَصبْرٌ جَميل، عَسى الله أنْ يأتِيني بِهم جَميعا﴾ [سورة يوسف: ٨٣].

الصبرُ الجميل هو ما استخدمُه محمدٌ ـ ﷺ ـ في مواجهةِ تكذيبِ قومه، فكان دافعاً له إلى المزيدِ من الدعوة والجهد والنشاط، حتى تحققتْ آماله، وانتصرتْ دعوتهُ: ﴿فَاصْبر صَبْراً

جَميلاً﴾ [سورة المعارج: ٥].

الصبرُ الايجابيُّ الجميل ضياءٌ للمسلم المعاصر، يضيءُ له طريقه، كما قال رسول الله - ﷺ -: «والصبرُ ضياء».

والصبرُ الايجابيُّ الجميل طريقٌ للنصر والعز والتمكين، كما قال رسول الله - ﷺ - «وَاعْلمْ أنَّ النصر مَعَ الصَّبر، وَأنَّ الفَرجَ مَعَ الكَرْب، وَأنَّ مَعَ العُسر يُسراً».

المسلمُ صابرٌ مصابر صبار. يهتفُ دائماً بقول القائل:

لأستَسْهِلَنَّ الصَّعبَ أو أُدرِكَ المنى فَمـا انقـادَت الآمـالُ إلا لصـابـرِ

بل هو يسابقُ الصبرَ ويسبقه، ويدعوهُ إلى أن يلحق به:

صابـرَ الصَّبْـرَ فاستغـاثَ بِهِ الصَّبْـرُ فَقـال الـصَّـبـورُ ياصَبـرُ صَبـراً

٥ - هو صادق:

والصدق ملازمٌ للصبر، وشرطٌ ضروريٌ لاستمرارِ السير. والصدقُ - مثلُ الصبر - ميدانهُ عريض، وأنواعُه شتى، أدناها صِدْق الرجل في حديثه وكلامِه.

المؤمنُ صادقٌ في كلامه، صادقٌ في سلوكه، صادقٌ في أفعاله،

، صادقٌ في جهاده،

صادقٌ في مواعيده وارتباطاته، صادقٌ في مواقفه
سوله، صادقٌ مع دينه
صادقٌ في سيره. إنه صادقٌ مع ربه، صادقٌ مع ر
حوله، صادقٌ مع كل
وقرآنه وإسلامه، صادقٌ مع نفسه، صادقٌ مع من
في حربه ومواجهته.
من يتعامل معه. صادقٌ في محبته ومودَّته، صادقٌ
ويسيرُ طريقه بصدق،

يعيشُ دنياه بصدق، وينصرُ دينه بصدق،
، الله: ﴿مِنَ المؤمنينَ
ويغـادر هذِه الـدنيا بصدق، ليصدق عليه قول
ضى نحبه. وَمِنهُمْ مَنْ
**رِجالٌ صَدقوا ما عاهَدوا اللهَ عَلَيْه. فَمِنهُم مَنْ قَ
يَنتظر. وَما بَدَّلوا تبديلا﴾.**

وخطوط أخرى:

خصيةِ المسلم الثابتة،
أشـرنـا إلى أبـرزِ خمسـةِ خطوطٍ في شـ
ودعوته وطريقه وغايته.
باعتبارِها من أهمِّ الثوابت المُثبِّتة له على دينه
ق.
وهي: أنه عابد، مجاهد، زاهد، صابر، صاد
نصيته، وثابتةٌ في كيانه.
وهناك خطوطٌ أخرى، مستقرةٌ في شخ

منها:
ه وجهادِه لخدمة دينه.
١ ـ أنه جادٌّ في سيره إلى الله، وفي جهد
بى الذّلّ، ولا يخضعُ ولا
٢ ـ أنه عزيزٌ حرٌّ أبيّ، يرفضُ الضيم، ويأ

يَلين لمخلوق.

٤ ـ أنه ذاكرٌ لربه في كل حالاته.

٥ ـ أنه متواضعٌ مع الناس، لا يتيهُ عليهم، ولا يمنُّ عليهم بما بَذل وقَدَّم.

٦ ـ أنه متفائلٌ يعيش الواقع بأملِ المستقبل، ويقرن التفاؤل والأمل بالعمل.

٧ ـ أنه محبٌ للآخرين، يملك قلباً يسعُ الجميع بتجاوزاتهم وإساءاتهم.

٨ ـ أنـه خيِّرٌ نافع، يقدِّم النفعَ والخيرَ للآخرين، حتى لو عاملوه بالسوء والأذى.

٩ ـ أنه حريصٌ على إرشاد الآخرين ونُصحهم، مشفقٌ على البائسين الضائعين منهم.

١٠ ـ أنه واع مفكرٌ متدبِّر، يستفيدُ من كل ما يمرُّ به، ويعتبرُ بكل ما يجري له.

١١ ـ أنه وفيٌّ لدعوته ودينه وإخوانه، لا يغدر بهم ولا يتنكَّرُ لهم.

١٢ ـ أنه ذكيٌّ لماحٌ كَيِّسٌ فَطن، يُفوت كيد الأعداء ويبطل مكرهم ضدّه.

١٣ ـ أنه معطاءٌ عطاء دائماً متجدداً سخياً، لا يضنُّ على دينه وإخوانه بأيّ شيء يملكه.

١٤ ـ أنه جنديٌّ لربّه ولدينه ولدعوته، لا يفارِقُ جنديته طيلة عمره.

١٥ ـ أنه قرآنيُّ العقل والمعرفة والأسلوب والعبارة، يصدرُ عن القرآن في كل شيء.

١٦ ـ أنه طالبُ علم، وراغبُ معرفة، يتزوَّدُ من العلم حتى يلاقي ربه.

ميادين لهذه الثوابت

تُشغِلُ ثوابتُ المسلم حيِّزاً كبيراً من حياته العامة والخاصة، وتتوزَّعُ مساحةً شاسعة من حياته، وتتجلّى في مختلف ميادين تلكَ الحياة ومجالاتها، بحيث توجِّه وتحرِّك المسلم في كافة تلك الميادين.

وشمولُ هذه الثوابتِ لكل تلك الميادين والمجالات، مظهرٌ من مظاهرِ «الشمول» في التصوُّر الاسلامي.

وأهم مجالات وميادين الثوابت في حياة المسلم هي:

ثوابته في معالم شخصيته:

معالمُ شخصيةِ المسلم ثابتة، وصفاتها البارزةُ ثابتة، وخطوطُها المستقرَّةُ فيها - التي أشرنا إلى أهمها من قبل - ثابتة.

الثوابتُ العباديةُ والجهاديَّةُ عنده لا تتغيّر. لا ينسى لحظةً أنه عابدٌ مجاهدٌ زاهد. ولا يتخلى لحظةً عن حريته وعزَّته وكرامَتِه، لا يستذله مخلوق، ولا يستعبده مسؤول، ولا يجبن أمامَ طاغية، ولا يضعفُ أمام جبار. يستعلي بايمانه، ويثبتُ على ثوابته، حتى لو كان

ضعيفاً مجرَّداً من كل أسباب ومظاهر القوة المادية.

إن المعالم الرئيسية لشخصيته ثابتةٌ عنده، ملازمةٌ له، لا يُتصوَّرُ أن يتخلّى عنها، فضلاً عن أن يساومَ عليها أو يتاجر فيها.

ثوابته التصورية والفكرية:

تصوُّرات المسلم وأفكارُه ومبادؤه، استمدَّها من القرآن والسنة، ولذلك يعتبرُها ثوابتَ ملزمةً له.

من تلك الثوابت: يقينهُ بأن الدينَ عند الله الاسلام، وأن الله لا يقبلُ أيَّ دين أو مبدأ آخر غيره، وأنَّ المسلم الصالح هو «المرشحُ» لدخول الجنة، وأنَّ جميع أصحابِ الأفكارِ والمبادىء والديانات الأخرى غيرُ مسلمين، أيّ أنهم كافرون، لا يواليهم في الدنيا، ولا يشكُّ في خلودهم في النار يوم القيامة. ويقينهُ بأن طريق الجنة واحدة، وهي في هذا الدين، والطريق إلى الله واحدة وهي طريقُ الاسلام المستقيم.

ثوابته الثقافية الاسلامية:

ونعني بها ثوابتُه في فهم الاسلام، كما يريدُ الله له أن يفهمه،

وكما فهمه الرسولُ عليه الصلاة والسلام وصحابتهُ الكرام، باعتباره ديناً عاماً خالداً، وأنه نظامٌ كاملٌ شاملٌ، يشمل كلَّ مرافق الحياة ومجـالاتهـا، فهـو دينٌ ودولـة، وشعيرةٌ وشـريعة، ودستورٌ ونظام، ومصحفٌ وسيف، وعقيدةٌ وعبادة.

وهـو ينـظِّم كافة مرافق ومجالات الحياة: العبادية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية والدستورية والاقتصادية والعسكرية والعلمية والفنية والثقافية والدولية وغير ذلك.

وهـو يوجبُ على الأمـة المسلمـة أن تَصدُرَ في كل مرافقها وميادينها عن هذا الاسلام العظيم، ولا يجيزُ لها أن تخالفه في أيَّة جزئيةٍ من جزئيات تلك الحياة.

ثوابته الدعوية:

يوقنُ المسلمُ بأن أهم واجباته المطلوبة منه هو «الدعوةُ إلى الله» ولذلك يجعل حياته ومواهبه وإمكاناته وطاقاته «وقفاً» على دعوته، فيدعـو الآخـرين وينصحهم ويرشـدُهم ويوجههم،ويجهرُ بالحق، ويصدعُ بالأمر، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويبلِّغ الدعوة، في أيِّ زمان أو مكان، وتحت أيِّ ظرف كائناً ما كان. ويدفعُ تكاليف

الدعوة - الشاقة - وضريبتها - الباهظة - ويتحمَّل كلَّ ما يواجهه برضىً ويقين وثبات.

ثوابته في الوزن والنظر والتقويم:

يثبتُ المسلم على ثوابته في وزْن الأفكار والمبادىء والشعاراتِ والأشخاص، فلا يستعملُ في ذلك إلا «الميزانَ الاسلاميَّ» الصحيح الصادقَ الثابت، ولذلك لا يخطىءُ في وزن كلِّ ما يحيط به من دعـوات وشعارات وأشخاص، ولا يخطىءُ في تقويم ذلك تقويماً إسلامياً دقيقاً.

القيمةُ الايمانية التي يقوِّم بها الأشخاص ثابتةٌ «إن أكْرمكم عِند الله أتقاكُمْ» وليس أقواكم، أوأغناكم.

ومنـظارهُ الايمانيُّ البصيرُ الذي ينظرُ به لكل ما حوله، ثابتٌ مشرق منير، لا يُصاب بالغبش أو العمى أو الضعفِ أو الخلخلة.

ثوابته في شؤون الحكم والتشريع:

نظرتُه لشؤون الحكم والسلطان والتشريع ثابتة منطلقةٌ من ثوابته الأصلية، إن الحاكمية عنده لا تكونُ إلا لله ﴿إنِ الحُكمُ إلا لله.

أمَرَ أن لا تَعبدوا إلا إيّاه، ذلِكَ الدّينُ القيم﴾ ولذلك لا يمنح صلاحيات «الحاكمية» لأحد من البشر، سواء كان شخصاً أو هيئة أو نظاماً أو حزباً أو سلطة. لأنه يعتقد أن وظيفة الأمة كلِّها هي «تنفيذُ» حكم الله، وتطبيقُ شريعته، والالتزامُ بقواعده. ويعتقدُ أن كلَّ مرافق ومجالاتِ وميادينِ ومؤسسات الأمة لا بد أن تلتزم بشريعة الله، وأن لا تخالفها في صغيرةٍ أو كبيرة.

ثوابته في مواقفه السياسية:

مواقفُ المسلم السياسية ثابتة، وغيرُ خاضعة للتلوُّن والانتهازية، لأنها تصدُر عن إسلامه وقرآنه، ويحكُمها ميزانهُ القرآنيُّ في وزن الأحداث والتطورات والمستجدات السياسية.

لا يمكن أن يوالي هذا المسلم الكافرين، أو يحبهم، أو يقربهم ويجعلهم «وليجةً» له في صورة خبراء أو مستشارين. ولا يمكنُ أن يتحرَّك خطوة سياسية، أو يقفُ موقفاً سياسياً، أو يصرِّحَ تصريحاً سياسياً، يخالفُ «ثوابته» السياسية والتصورية والايمانية.

ثوابته في نظرته لأعدائه:

إن المسلم لا يعادي إلا مَنْ عادى هذا الدين، ولا يحاربُ إلا من حارب هذا الـدين، فحبُّه لله وفي الله، وبغضه لله وفي الله، وصلته بالناس محبةً أو عداوةً على مقدار قُربهم أو بُعدهم من دين الله. فالعدوُّ عنده يبقى عدواً ما دام معادياً لهذا الدين، ولا يتخذُه صديقاً أو عزيزاً إلا إذا دخل معه في هذا الدين.

ثوابته في المسألة الفلسطينية:

إن نظرتـه للقضية الفلسـطينية ـ القضية المـركزية الأولى للمسلمين في هذا العصر ـ محكومةٌ بثوابته الأصلية: اليهودُ عنده كلُّهم أعداء، وهم غاصبون محتلون لفلسطين، ولذلك لا يفكر في مصالحتهم أو مهادنتهم. ويؤمن أنه لا حقَّ لهم في كيانٍ على أصغر جزءٍ من فلسطين، وفلسطينُ كلُّها أرضٌ إسلامية، يجبُ تحريرها من البحر إلى النهر، وهي قضيةٌ إسلامية، تهم المسلمين. جميعاً، إنها ليست قضيةً عربية فقط، ولا إقليميةً فلسطينية فقط.

ويؤمنُ بوجـوبِ توجيه كلِّ طاقـاتِ وقدُرات وإمكاناتِ الأمة المسلمة لقتالِ اليهودَ، وتحرير فلسطين كلِّها منهم. ويؤمنُ أنَّ الحلَّ

الوحيد للقضية الفلسطينية هو «الجهاد: نصر أو استشهاد» وأنَّ مفتاح الحل هو: ﴿أدْخُلوا عَليهمُ الباب، فإذا دَخلتُموهُ فإنَّكُم غالبون، وَعلى الله فتوكَّلوا إن كُنتُمْ مُؤمنينَ﴾ [سورة المائدة: ٢٣].

وأنَّ هذا الحلَّ هو أقصرُ الطرق وأسرعُها، وأنَّ ما سواه متاهاتٌ وأوهام، وسرابٌ خادع.

ولـذلـك يجب تنشئـةُ الأمة على الجهادِ وطلب الاستشهاد، ويجب إعدادُ جيل الجهاد من شباب الأمة القويِّ الفتي.

ثوابته في النظر للمستقبل:

يتعاملُ المسلمُ الثابتُ على الثوابت مع المستقبل على أساسِ «وُعود الاسلام» في آياتِ القرآن، وأحاديثِ رسول الله الصحيحة ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

يستشرفُ ذلك المستقبل وفق تلك النصوص، فينظرُ فيه بمنظارٍ إيماني صادق، ويرى ملامحه وسماته بصفاءٍ ووضوح.

إنه يعتقدُ ـ إنطلاقاً من ثوابته ـ أن الواقع البائس لهذه الأمة سيتغير، وأن الغـاشية الجـاهلية السـوداء التي غطت سمـاءهـا

ستتلاشى، وأن المظاهر الشائهة التي شوهت وجه الأمة المشرق ستزول، وأن المرض الخطير الذي أصاب الأمة سينتهي، وأن هذه الأمة ستستردُ عافيتها، وتعودُ إليها دماؤها، وتعود لتتبوأ منزلتها السامية بين الأمم، وتعودُ إلى إسلامها العظيم، وقرآنها الخالد، وتُحكِّمَه في كل شؤون حياتها، وتنشىءُ كيانها ووجودها على أساسه، وبذلك ستنتصر على أعدائها، وتقضي على أزماتها، وتحلُّ مشكلاتها.

إنه يؤمنُ أن البشريةَ كلها ستفيءُ إلى هذا الاسلام، وستتخلى عما هي فيه من جاهليةٍ وكفر، وضياعٍ وحيرة، وحيوانيةٍ بهيمية. وأن الاسلام سيبلغُ كلَّ جزءٍ من هذا العالم، وأن الله سيتمُّ نوره، ويظهرُه على الدين كله - ولو كره الكافرون والمشركون -.

ولذلك تجدُ هذا المسلم الثابت، كلُّه أملٌ وثقةٌ ويقين بأن «المستقبل لهذا الدين».

ولكنه لا يجعلُ أمله ويقينه وثقته مجردَ أمنياتٍ وخيالات وأحلام، ولا يقعد ويستكين مداعِباً لها في تأملاته النفسية، وخلواته الخيالية. بل يستحضرُ هذا الأمل واليقين والثقة، وينزلُ إلى الميدان، ميدانِ العمل والدعوة، والمصابرة والمرابطة، والجهاد

والمجاهدة، فيقرنُ الأمل بالعمل، ليعمل على تحقيق هذه الآمال في واقع الأمة.

ثوابته في «حتمية الحل الاسلامي»:

«الاسلام هو الحل» عبارةٌ جامعة، تدلُّ على تصوُّره الثابت للحلّ المنشود.

إنه يرى مصائب الأمة، ويعيشُ أزماتها، ويتألمُ لمشكلاتها، ولكنه يؤمن بأن السبب في كل ما تعانيه، هو بُعدُها عن منهج الله، وإقصاؤها الاسلام عن سدَّة الحكم والسلطان والتشريع والتوجيه، واستقدامُ غيره من المناهج والنظم والتشريعات الأرضية الجاهلية.

يؤمنُ بأن الجناية الكبرى هي في الحلول المستوردة، من عالم الشرق والغرب، ولذلك يرفضُها ويحاربُها ويفنِّدُها، ويقفُ أمام أصحابها، ويدعو الأمة إلى أن لا تستجيب لها، ويقدُّم ما عنده من علاج ناجع، وحلٍّ حاسم، ويوجِدُ عند الناس قناعةً «بحتمية الحل الاسلامي» ليكونوا من الدعاة إليه والمنادين به.

ويعتقدُ أنَّ «الحل الاسلامي» يجب أن يتحقق على طريقة

رسول الله - ﷺ - وليس على طريقة البشر «التجار» الذين يطبقون من الاسلام جزءاً - أو أجزاء - ويدَّعون أنهم بذلك يطبقون الاسلام.

إن «الحلَّ الاسلامي» يتحققُ بصدق الالتزام بهذا الاسلام من قِبل الجميع، وأن تخضع الأمةُ لهذا الاسلام في كل مرافق ومجالات وشؤون حياتها، وأنْ يتحولَ كلُّ فرد في الأمة - مهما كان موقعُه ومركزه ومسؤوليته - إلى ملتزمٍ عملياً بالاسلام، محقِّقٍ للعبودية الصادقة لله، منفذٍ لشريعة الله، مطبِّقٍ لأحكام الله، داعيةٍ إلى دين الله، محاربٍ لأعداء الله!!

يؤمن بأنَّ «الحل الاسلامي» لا يتحقق إلا بالالتزام العملي بقوله تعالى: ﴿فَلا وَربِّكَ لا يُؤمِنونَ حَتى يحكِّموكَ فيما شَجرَ بَينهُمْ، ثُمَّ لا يجدوا في أنْفُسِهِمْ حَرجاً، مما قَضيت، وَيسَلِّموا تَسليما﴾. [سورة النساء: ٦٥].

وقوله تعالى: ﴿وَما كانَ لِمؤمنٍ وَلا مؤمِنةٍ إذا قضى الله وَرَسولُهُ أمراً أنْ يَكونَ لَهُمُ الخِيَرةُ مِنْ أمْرِهِمْ﴾ [سورة الأحزاب: ٣٦].

يؤمن بأن الحل الاسلامي لا يتحقق إلا باخضاع كلِّ شؤون الأمة لحكم الله، وصدورها عن دين الله، وعدم مخالفتها في أية

جزئية لنصوصه ومبادئه وتوجيهاته. سواءٌ في شؤون الحكم والسلطان، أو شؤونِ القضاءِ والتشريع، أو شؤون السياسة والاقتصاد والاجتماع والعلم والفن.

ثباتُه على هذه «الثوابت»:

إن هذه الثوابت تحكمُ حياة المسلم الخاصة والعامة. فهو في حياته الخاصة، وتصرفاته الشخصية لا يخالف واحداً منها، وهو في حياته العامة، وصِلاته مع الآخرين لا يخرجُ عن واحد منها.

نظرتُه للحلال والحرام ثابتة، غيرُ متأثِّرة بالملابسات والظروف والأجواء والحاجات. الحلالُ هو ما أحله الله، يبقى حلالاً حتى قيام الساعة. والحرامُ هو ما حرَّمه الله، ويبقى حراماً حتى قيام الساعة، ولا يمكنُ أن «تتبدَّل» المواقع عند المسلم، حلالُ الأمس حرام اليوم، وحرام اليوم حلال الغد.

هو ثابتٌ على هذه الثوابت في: أخلاقه، وسلوكه، وصِلاته، وتصرفاته، وارتباطاته، وولائه، في كلامه ونطقه، في وظيفته وسعيه وكسبه، في كل ما يقرأ ويسمعُ ويشاهد، في قناعاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية..

إنــه لا يتـأثـرُ في أيِّ أمـرٍ من الأمور بالظروفِ والملابساتِ الأرضية، ولا يسمح لها أن تؤثِّرَ في ثباته، أو تزحزحه عن ثوابته. ولذلك تجده لا تُبطره نعمة، ولا تُطغيه فتنة، ولا يُخيفه تهديد، ولا يُغيِّره وعيد.

إنه لا يُغيِّر «ثوابته» كما يغيِّر ملابسه، ولا يَبدِّلها كما يبدِّلُ أزياءه.

إنه لا يعيشُ «فصاماً» نكداً، بين القناعات النظرية والممارسة العملية.

إنه لا يخضعُ في هذه الثوابت لضغوطِ «الواقع»، ولا يتزحزحُ عنها، أو يتشكَّكُ فيها، أو يتخلى عنها، باسْم «الواقعية» والكياسة والعقلانية وبُعد النظر وسعةِ الأفق، وعدمِ التعصب والتشنج، والانفتاح والوسطية، وغير ذلك.

إنه لا تُزحزحهُ شدةُ الضغوط، ولا كثرةُ المساومات، ولا ضخامةُ التحديات، ولا عنفُ المواجهة، ولا كبرُ التضحيات، ولا ارتفاعُ الثمن!

إنــه أثبتُ عل «ثوابته» من الجبال الراسخةِ الثابتة، قد تزولُ

الجبالُ ولا يزول. يدفعُ روحَه وحياتَهَ ثمناً لدينه، ووفاءً لثوابته.

إنه ثابتٌ في الميدان. ثابتٌ في المعركة، ثابت في المواجهة، ثابت تحت الراية القرآنية، ثابت في حمل اللواء، ثابت في «خندق» الجهاد، ثابت في «الصف الأول»، ثابت في «الثَّغرة» المتقدمة من ثغور الاسلام!

إنــه ثابتٌ على ثوابتــه، ثابت في مواقعه، ثابت حتى تخرجَ روحُه، ويلاقي ربَّه.

وعندها - فقط - يصدُقُ فيه قولُه تعالى: **﴿مِنَ المُؤمنينَ رجالٌ صَدقـوا ما عاهَـدوا الله عَليه، فَمنْهُمْ مَنْ قَضى نَحبهُ، ومِنهُمْ مَنْ يَنتظر، وَما بَدَّلوا تَبديلا﴾** [سورة الأحزاب: ٢٣].

نماذج للثابتين على ثوابتهم

نقدِّم فيما يلي نماذجَ للثابتين على ثوابتهم، ليتعرَّفَ الثابتون على مَنْ سبقوهم من الثابتين، وليعرفوا أنَّ الثبات على الثوابت ليس أمراً مستحيلاً - رغم ما فيه من مصاعبَ ومشقَّاتٍ وتضحيات - وليقتدوا باولئك الأسلاف العظام، فيسيروا على طريقهم الثابت بخطوات ثابتة.

ثباتُ الأنبياء:

الأنبياءُ الكرامِ - عليهم الصلاة والسلام - هم القدوةُ الأولى لمن بعدهم في ثباتهم، فكلُّ حياتهم ثباتٌ على رسالاتهم، وكل حياتهم مع أقوامهم المعادين الكافرين ثباتٌ على ثوابتهم. وقد وصلوا في ثباتهم إلى قمم سامقة، ودرجاتٍ عظيمة، لم يصلها أتباعُهم مِن بعدهم!

تقرأ في القرآن عن ثبات نبيِّ الله نوح - عليه السلام - وتحدّيه لقومه، واستعلائه بإيمانه، وتوكُّله على ربه، قول الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِم نَبأ نوح، إذْ قالَ لِقَومِه: يا قَوْم: إنْ كان كَبُرَ عَلَيكُمْ مَقامي

وَتذكيري بآياتِ الله، فَعَلى الله تَوكلتُ، فأجمعُوا أمْركُمْ وَشُركاءَكُمْ، ثُمَّ لا يَكُنْ أمْركُم عَليكُمْ غُمَّة، ثُمَّ اقضوا إليَّ ولا تُنظِرونْ﴾ [سورة يونس: ٧١].

وتقرأ في القرآن عن ثباتِ نبيِّ الله هود - عليه السلام - على ثوابته، قوله تعالى: ﴿إنّي أُشْهِدُ الله وَاشْهدوا، أنّي بَريءٌ مِمّا تُشْركونَ مِنْ دونه، فَكيدوني جميعاً، ثُمَّ لا تُنظرونْ. إنّي تَوكَّلتُ على الله رَبّي وَرَبِّكُم، ما مِنْ دَابَّةٍ إلا هُوَ آخِذٌ بناصيتها. إنَّ رَبّي على صِراطٍ مُستقيم﴾. [سورة هود: ٥٤ - ٥٦].

وتقرأ في القرآن عن ثبات نبي الله إبراهيم - عليه السلام - مع الذين آمنوا معه، ومفاصلتهم لقومهم الكفار، وبراءتهم منهم: ﴿قَدْ كانَتْ لَكُم أُسوةٌ حَسنةٌ في إبراهيم وَالذين مَعه. إذ قالوا لِقومِهمْ: إنا بُرءاءُ مِنْكُمْ، وَمِما تعبدونَ مِنْ دونِ الله، كَفرْنا بكُمْ، وَبَدا بَيْنَنا وَبَيْنكُمُ العداوةُ والبغضاءُ أبداً، حَتى تؤمِنوا بالله وَحْدَه. ﴾ [سورة الممتحنة: ٤].

وتقرأ في القرآن عن مواجهة موسى - عليه السلام - لفرعون، وثباته أمامه. وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتينا موسى تَسعَ آياتٍ

بيِّنات، فَاسْأَلْ بني إسرائيلَ إذْ جاءَهُمْ. فقالَ لَهُ فِرعَوْنُ: إنّي لأظُنُّكَ يا موسى مسحورا. قال: لَقدْ عَلمتَ ما أنزَلَ هؤلاءِ إلا رَبُّ السمواتِ والأرضِ بصائر. وَإنّي لأظُنُّكَ يا فِرعَونُ مَثبورا. فارادَ أنْ يستفزَّهُم مِنَ الأرض، فأغْرقناهُ وَمَنْ مَعَهُ جَميعاً﴾. [سورة الاسراء: ١٠١ - ١٠٣].

أما إمامُ الثابتين وقدوتُهم، محمدٌ - ﷺ - الذي كانتْ كلُّ حياته الكريمة، وسيرته الشريفة ثباتاً: فنكتفي فيها بهذا المثالِ القرآنى، عن ثباته أمامَ الكفار، وعن تثبيت الله له على ثوابته: ﴿وَإنْ كادوا لَيفتنونَكَ عَن الذي أوْحَينا إليْكَ لتفتريَ عَلَينا غيره. وَإذاً لاتَّخذوكَ خليلاً. وَلَولا أنْ ثَبتناك، لَقدْ كِدْتَ تَركَنُ إليهمْ شَيئاً قليلاً. إذاً لأذقناكَ ضِعْفَ الحياةِ وضِعفَ المماتِ ثُمَّ لا تَجُد لَكَ عَلينا نَصيرا. وإنْ كادُوا ليستفزونَكَ مِنَ الأرضِ ليخُرجوكَ مِنها، وَإذْن لا يَلبثون خِلافك إلاّ قليلاً. سُنَّة مَنْ قد أرسلنا قَبلَكَ مِنْ رُسلنا، ولا تجدُ لسُنتنا تحويلاً﴾. [سورة الاسراء: ٧٣ - ٧٧].

ثبات أصحاب الأخدود:

أتباعُ الأنبياء من السابقين، اقتدوا بأنبيائِهم في ثباتهم على

الحق الذي هم عليه، وتحمُّلهم كلَّ ما يصيبهم نتيجةً لهذا الثبات، ولو كان هذا إزهاقُ أرواحهم، ومغادرتُهم هذه الدنيا شهداء.

نكتفي من اولئك السابقين بنموذج «أصحاب الأخدود»، وقصتهم معروفةٌ لكل مسلم ثابت[1]. ونلتقطُ من قصتهم المشهد الأخير، عندما استشهد الغلامُ الداعية أمام الجماهير المحتشدة، وكان استشهاده سبباً في ايمان تلك الجماهير، التي أُعجبت بثباته على ثوابته، فدخلت في دينه، وهتفت «آمنَّا برب الغلام». ثم إن «الملك الكافر» هدَّدهم وعذَّبهم، فلم ينلْ من ثباتهم، ولم يجد إلا الأخاديد يملأها ناراً، ويُلقيهم فيها، فيسقطون شهداء ثابتين، والكلُّ يوصي أخاه أو قريبه بالثبات على الحق ولو أدى الثباتُ إلى الموت. حتى الغلامُ الرضيعُ ينطقُه الله فيوصي أمَّه بالثبات على الحق!!

ونسجلُ هذه اللقطة الأخيرة العظيمة من حديثِ رسول الله ـ ﷺ ـ روى الامام مسلم في صحيحه عن صهيب الرومي ـ في نهاية حديث طويل ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «فقالَ الناس: آمنَّا

---

(١) اقرأ ـ إن شئت ـ كلامنا عن دروس قصتهم في الكتاب الثالث من مجموعتنا «مع قصص السابقين في القرآن».

برب الغلام. آمنّا برب الغلام. آمنا برب الغلام».

فأُتي الملكُ فقيل له: أرأيت ما كنت تحذَر؟ قد - والله - نزلَ بك حذرُك. قد آمن النّاس.

فأمر بالأخدود في أفواه السكك فُخدَّتْ، وأضْرمَ النيرانَ. وقال: مَنْ لَمْ يرجعْ عن دينه، فأحموهُ بها. أو قيل له: اقتحم. ففعلوا. حتى جاءت امرأة، ومعها صبيٌّ لها. فتقاعست أن تقع فيها. فقال لها الغلام: يا أمَّه. إصبري. فإنك على الحق!!»[1].

وما أجمل تعقيب الامام الصابر الممتحن الثابتِ الشهيد «سيد قطب» على قصة أصحاب الأخدود. وهو من آخر ما كتبه، وأثبته في فصل «هذا هو الطريق» من كتابه الرائد «معالم في الطريق»، وما أروع هذه العبارة التي علَّق فيها على ثباتِ أصحاب الأخدود: «لقد كان في استطاعة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم، في مقابل الهزيمة لايمـانهم. ولكن: كم كانـوا يخسـرون هم أنفسهم؟ وكم كانت البشرية كلها ستخسر؟ كم كانوا يخسرون، وهم يقتلون هذا المعنى

---

(١) صحيح مسلم. كتاب الزهد والرقائق رقم (٥٣). باب قصة أصحـاب الأخدود رقم (١٧) حديث رقم (٣٠٠٥).

الكبير: معنى زهـادة الحياة بلا عقيدة، وبشـاعتهـا بلا حرية، وانحطاطها حين يسيطرُ الطغاةُ على الأرواح، بعد سيطرتهم على الأجساد.

إنه معنى كريم جداً، ومعنى كبير جداً، هذا الذي ربحوه وهم بعدُ في الأرض، وهم يجدون مَسَّ النار، فتحترقُ أجسادُهم الفانية، وينتصرُ هذا المعنى الكريم الذي تزكيه النار!»[1].

ألست معي ـ أخي الثابت ـ في أن سيد قطب كان يقتدي بأصحـاب الأخدود في مماته، وكأنه بهذه الكلمات يتوقعُ نهايته، التي شابهت نهاية أصحاب الأخدود!

ثبات عبدالله بن حذافة أمام قيصر الروم:

ضرب صحابةُ رسول الله ـ ﷺ ـ أمثلةً عاليةً عظيمةً في الثبات على الثوابت، ودعَوا مَنْ بَعدهم من المسلمين للاقتداءِ بهم في ثبـاتهم. نكتفي من مواقفهم بهـذا النمـوذج العـظيم الـذي وقفه الصحابيُّ الجليل عبدالله بن حُذافة السَّهمي أمام قيصر الروم.

---

(١) معالم في الطريق: ٢٣٥ ـ ٢٣٦.

كان عبدُالله بنُ حذافة من القادة المسلمين الذين اشتركوا في فتح بلاد الشام. وقد أُوكلت إليه مهمةُ محاربةِ أهل «قيسارية» - المدينة الفلسطينية الحصينة، على شاطىء البحر المتوسط - ولكن قَدَّرَ الله أن يفشل عبدالله بن حذافة في إحدى المعارك، وأن يقعَ أسيراً بيد الروم!

ووجَدَها «هرقل» فرصة مناسبةً لايذاء المسلمين والانتقام منهم. أحضر «عبدالله بن حذافة» أمامه، وأراد أن يفتنه عن دينه، ويُبعده عن إسلامه.

بدأ معه بسلاح الاغراء والمساومة، فقدَّم له عروضاً مغرية:
قال له: أُدخل النصرانية، ولك ما تشاء من الأموال!
ورفض ابن حذافة هذا العرض!
ثم قال له هرقل: أدخل النصرانية، وأزوجُك ابنتي!!
ورفض ابنُ حذافة العرض الثاني!!.
ثم قال له هرقل: أُدخل النصرانية وأُشركك في ملكي!!
ورفض ابنُ حذافة العرض الثالث!!
وعرفَ هرقل أنه أمام نوعٍ خاص من الرجال، فعرض عليه

العرض الرابع، قال له: أُدخل النصرانية وأعطيك نصف ملكي، ونصف مالي!!

فأجـابـهُ ابن حذافة إجابةً ثابتة قاطعة: لو أعطيتني جميعَ ما تملك، وجميعَ ما يملك العرب، ما رجعت عن دين محمد - ﷺ - طرفة عين!!!

لجأ هرقل - بعد فشله في عروضه ومساوماته وإغراءاته - إلى السـلاح والاضـطهـاد والتعذيب والتهديد والوعيد. فقال له: إذنْ أقتلك؟ وما درى هرقل أنَّ من ينتصرُ على سلاحِ الاغراء والمساومة، سينتصرُ على سلاح الاضطهاد والتعذيب، وأنَّ الذي يدوسُ على الدنيا بقدميه لن يبخل عن تقديمِ روحه فداءً لدينه.

أجابه ابنُ حذافة: أنتَ وذاك!!

وضَعَ ابنَ حذافة في السجن، ومَنع عنه الطعام والشراب ثلاثة أيام، ثم قدَّم له الخمر ولحم الخنزير ليأكله. ولكنَّ ابن حذافة رفض أن يذوقه، واستمرَّ أياماً بدون طعام أو شراب، حتى أوشكَ أن يموت!!.

فأخـرجَـهُ هرقـل، وقـال له: ما منعـك أن تأكـل من الخمر

والخنزير، وأنت مضطرٌ جائع؟

فقال له: أمَا إنَّ الضرورة قد أَحَلَّتْها لي. ولا حرمة عليَّ لو أكلتها، ولكني آثرتُ أن لا آكل، حتى لا أجعلك تشمت بالاسلام!! ثم أمر هرقل به، فصلبوه، وأوثقوه على الخشبة، وصار الرماةُ يرمون السهام قريباً من بدنه، وهو ثابت. وقيصرُ يعرضُ عليه التنصر، وهو يأبى!

ثم أنزله. وأمر بوضع ماءٍ في قدر عظيمة، واشعال النار تحتها. ولما صار ماءُ القدر يغلي، جيء بأسيرٍ مسلم، فأُلقي فيها فذاب لحمـه في الماء، وتحوَّل إلى هيكل عظمي، ثم أُلقي فيها أسيرٌ مسلم ثان. وابنُ حذافة ينظر!!

ثم أمـر هرقلُ بالقاءِ ابن حذافة في الماء الذي يغلي، فلما أخذوهُ ليلقوه بكى!!

فقيل لهرقل: إنَّ ابن حذافة بكى.

فظنَّ هرقلُ أنَّ بكاء ابن حذافة لخوفه من الموت، وأنه يدُلُّ على تراجعه عن موقفه، وتنازُله عن ثوابته، وأنه سيستجيبُ له!

فدعاهُ. وعرض عليه التنصر. فأبى!!

فقال له: إذن لماذا بكيت؟

فأجابه جواباً عجيباً حقاً، أعجزه، وأثبت له فشله معه، وهزيمته أمامه:

بكيتُ، لأني لا أملكُ إلا نفساً واحدة، أبذلها فداءً لديني في سبيل الله، وتمنيتُ لو كان لي بعدد شعري أنفس، أبذُلُها فداءً لديني، وتموتُ كلُّها في سبيل الله!!!

وأيقن هرقلُ بهزيمته أمام ابن حذافة. هزيمته وهو يملكُ المال والجاه والسلطان والقوة والدنيا، أمام رجلٍ مسلم أعزل مجرد من كل هذه المظاهر.

فعرض عليه العرض الأخير الانهزاميَّ ـ حفظاً لماء وجهه ـ: يا ابن حذافة. هل لك ان تُقبِّل رأسي، وأُخلي عنك، وأُطلق سراحك؟

قال ابنُ حذافة: نعم. على شرط ان تطلق معي سراح جميع الأسرى المسلمين في سجونكم ـ وكانوا أكثر من ثلاثمائة أسير ـ!!

وقَبَّل ابنُ حذافة رأس هرقل، وخرج باخوانه إلى عمر بن

الخطاب في المدينة، وأخبره قصته مع هرقل!

وتحرَّج بعضُ الصحابة من تقبيل ابن حذافة رأس هرقل، ولاموه عليه، ولم يلتفتوا للثمن الكبير من الأسرى الذين أطلق سراحهم مقابل تلك القبلة. ووافق عمرُ ابن حذافة على تصرُّفه. وقال لهم: حقٌّ على كلِّ مسلم أن يُقبل رأس ابن حذافة. وأنا أبدأ بذلك!

وقام عمر إلى ابن حذافة، وقبَّل رأسه، وتبعه باقي الصحابة[1]!!

ثبات أحمد بن حنبل في محنته:

وهذا نموذجٌ للثابتين على ثوابتهم، يمثِّلُ «الثبات» في التاريخ الاسلامي.

إنه ثباتُ الامام الممتحن «أحمد بن حنبل» - رضي الله عنه - حيثُ ابتُلي زمنَ المأمون والمعتصم، بفتنة «خلق القرآن» وهي الفتنة التي أثارتها المعتزلة. وزعمت أنَّ القرآن مخلوق. فوقف لهم إمامُ أهل السنة في عصره «أحمد بن حنبل» وقال إن القرآن كلامُ الله،

---

(١) انظر قصة ابن حذافة في «سير أعلام النبلاء» للذهبي ٢: ١١ - ١٦.

وكلامُ الله غيرُ مخلوق، فالقرآن غيرُ مخلوق. وهذا هو رأْيُ أهلِ السنة، الذي ثبتَ عليه الامام.

وسُجن الامامُ أحمد في أواخر عهد المأمون، وفي عهد المعتصم، وعُذِّب في سجنه عذاباً رهيباً، وضُرب بالسياط، ومع ذلك ثبت ثبات الرجال!

ونقدِّم لقطاتٍ سريعةً من محنة ذلك الامام، يتجلَّى فيها ثباته على ثوابته:

لما سيق إلى المأمون، مرَّ به ـ وهو في القيود ـ أحدُ المسلمين وهو جابرُ بْنُ عامر، وأوصاهُ بالثبات على الحق، وقال له: يا إمام: إنك وافدُ الناس، فلا تكن شُؤماً عليهم. وإنكَ رأْسُ الناس اليوم، فإيّاكَ أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه، فيجيبوا، فتحمل أوزارهم يوم القيامة. وإن كنت تحبُّ الله فاصبر على ما أنت فيه، فإنه ليس بينك وبين الجنة إلا أن تُقتل، وإنك إنْ لم تُقتل تمت، وإن عشت عشت حميداً»[1].

---

(1) أحمد بن حنبل لعبدالغني الدقر ـ أعلام المسلمين رقم ١٧ ـ صفحة ١٧١.

وقَبل أن يدخل على المعتصم، قال لهُ أحد المشفقين: يا أحمد، إنها والله نفسك، إنه لا يقتلُك بالسيف، إنه قد آلى إنْ لم تجبه، أن يضربك ضرباً بعد ضرب، وأنْ يلقيك في موضعٍ لا تُرى فيه شمسٌ ولا قمر»[1].

وأُدخل أحمد على المعتصم عدة مرات، ودعاهُ المعتصم في كل مرة إلى التراجع عن رأيه، والقولِ بما يقولون به، وهو ثابتٌ يأبى عليه أشدَّ الاباء.

ولما أوشك أن ييأسَ منه. قال له: ويحك يا أحمد. أجبني حتى أطلق عنك يدي.

وهو يردُّ عليه قائلًا: أعطوني شيئاً من كتاب الله، أو سنةِ رسول الله - ﷺ - حتى أقول به.

فأمر المعتصمُ الزبانية والجلادين بأخذِ الامام وسحبه وجلده..

وجيء بالعُقابين - وهما خشبتان يُشبَحُ الرجلُ بينهما لُيجلد - وشُدَّ الامامُ على العقابين، وأحضروا السياط ليجلدوه، وجلس

(١) المرجع السابق: ٨١٧٥.

المعتصم أمـامـه على كرسي. وأمر الزبانية بجلد الامام. فجعل الـرجـلُ يتقدَّم فيضربهُ سوطين ثم يتقدَّم غيره وهكذا. والمعتصمُ يخاطب كُلًّا منهم قائلاً: شُدّ. قطع الله يُدك.

ولما ضُرب الامام تسعة عشر سوطاً، قام إليه المعتصم وقال له: يا أحمد. علامَ تقتلُ نفسك؟ إني والله عليك لشفيق. , وجعل أحدُ الزبانية ينخس أحمد بسيفه، ويقول له: أتريدُ أن تغلب هؤلاء كلَّهم.

وقال له جلاد آخر: ويلك! الخليفةُ على رأسـك قائم!

وأفتى أحدُ الظالمين للمعتصم بقتل أحمد، وقال له: يا أمير المؤمنين، دَمُهُ في عنقي! أقتُلْه!!

وقال أحد الحاضرين للمعتصم: يا أمير المؤمنين، أنت صائم، وأنت في حرِّ الشمس قائم: وأحضروا له مظلَّة فوق رأسه!!

فقال له المعتصم: يا أحمد: ويلَكَ! ما تقول؟

فيجيبُ أحمد: أعطوني شيئاً من كتاب الله، أو سنة رسوله ـ ﷺ ـ أقول به!

فأمر المعتصم الجلاد بضرب أحمد، وقال له: تقدَّمْ وأوجع،

قطع الله يدك.

وصاروا يقولون لأحمد: ويلك مَنْ صنع مِنْ أصحابك في هذا الأمر ما تصنع؟

وقال المعتصم لأحمد: ويلك! أجبني إلى شيءٍ فيه أدنى فرج، حتى أُطلق عنك يدي!

وأحمد لا يقول إلا كلمته المعهودة: أعطوني شيئاً من كتاب الله، أو سنة رسوله - ﷺ - أقول به!

واستمرَّ ضرْبُ الجلادين لأحمد بسياطهم، والمعتصمُ يقولُ لكل منهم: شدّ قطع الله يدك!

قال أحمد: فذهب عقلي، فأفقت بعد ذلك، وإذا القيودُ قد أُطلقت عني - وكان ذلك في اليوم الخامسِ والعشرين من رمضانِ من سنة إحدى وعشرين ومائتين - وقال لي رجل ممن حضر: لقد أمَرنا المعتصم فكببناك على وجهك، وطرحناك على ظهرك، ودُسناك بأقدامنا.

وأتوهُ بسُويق، وقالوا له: إشربْ وتقيأْ. فقال: أنا صائم لا أفطر!!

قال ميمونُ بن الأصبغ: أُخرج أحمد بن حنبل من الحبس، بعد أن اجتمع الناسُ على الباب، وضجوا، فخاف المعتصم وأطلق سراحه.

ونظم أبوشعيب الحرانيّ هذه الأبيات الثلاثة في ثباتِ أحمد بن حنبل:

ضربوا ابن حنبلَ بالسيّاط بظُلمهمْ بغياً فثُبِّتَ بالثباتِ الأنورِ
قالَ الموفَّقُ حين مدُّدَ بينهُمْ مَدَّ الأديم مَعَ الصعيد القرقرِ
إنّي أموتُ ولا أبوءُ بفجرةٍ تَصلى بوائِقهُا محلَّ المفتري[1]

ثباتُ سيد قطب في محنته:

ونختمُ النماذج الخمسة المختارة لثبات الثابتين، بهذا النموذج، الذي يمثلُ الثابتين في العصر الحديث.

إنه نموذجُ الامام الصابر الممتحن الثابت الشهيد سيد قطب، والكل يعرف طرفاً من محنة «سيد» المعاصرة مع الطغيان والطغاة. حيث آذوه بأصناف الايذاء والعذاب فصبر وثبت، وأغروه بصنوف

(١) انظر محنة أحمد وثباته فيها في كتاب «أحمد بن حنبل» للدقر: ١٧٠ - ١٩٠. وانظر مراجعه هناك.

الاغراء والمساومات ليتنازل عن ثوابته، فصبر وثبت.

أقدمُ هذه اللقطة من تعذيبهم لسيد ـ كما رواها المجاهدُ المرحومُ جابر رزق في كتابه «مذابحُ الاخوان في سجون ناصر»:

«كان سيدُ في محنة ١٩٦٥ قد بلغ الستين من عمره.. ومُصابٌ بالذبحة الصدرية.. بالإضافة إلى مرض الكلى.. وأمراض المعدة..

ولم تشفع له سنه، ولم يشفع له مرضه.. ولكنهم استغلوا هذه الأمراض جميعاً في نوع التعذيب الذي تعرَّض له.

لقد ربطوهُ في كرسي لمدة أربعة أيام، وحرموه فيها من الطعام والشـراب، وحرموه حتى من الماء.. وكانوا يسكبون أمامه الماء.. ومعروفٌ أنَّ مريض الكلى يحتاجُ إلى كمياتٍ كبيرةٍ من الماء. وهم يفعلون ذلك به مبالغةً في تعذيبه. ولقد أوشك أن يفقد بصره من شدة التعذيب»[1].

---

(١) مذابح الإخوان في سجون ناصر لجابر رزق: ١٣٣.

أمّا المساوماتُ والاغراءاتُ فقد استمرت معه حتى في ليلة التنفيذ.

وأكتفي ببعض ما سووِمَ عليه ليلة إعدامه.

تروي المجاهدةُ «زينب الغزالي» قولها: إنَّ سيء الذكرِ حمزة البسيوني - مدير السجن - جاءَ إلى شقيقة سيد، المجاهدة «حميدة» في السجن، لتضغط على شقيقها، ليعتذر عما فعل، لينجو من الاعدام.

وقال لها: إن شقيقك خسارةٌ لمصر كلِّها، ليس لكِ وحدك. إنني غيرُ متصور أن نفقد هذا الشخص بعد ساعات، إننا نريدُ أن ننقذه من الاعدام بأيِّ شكل، وبأية وسيلة. إنَّ بضع كلماتٍ يقولها ستخلصه من حكم الاعدام، ولا يستطيعُ أحدُ أن يؤثرَ عليه إلا أنت..

وقابلت حميدةُ شقيقها المقابلة الأخيرة، وعرضت عليه ما سمعته من البسيوني. فقال لها: والله لو كان اتصالنا بدولة أجنبية ضدَّ البلد صحيحاً لقتله، ولما استطاعت قوةٌ من الأرض أن تمنعني من قوله، ولكنه لم يحدُث، وأنا لن أقول كذباً أبداً.

ثم قال لها: وأنت هل ترضين أن أقوله وأعتذر؟ فقالت له الصابرة المحتسبة: لا. لا تقُلْ.

فقال لها: إنهم لا يستطيعون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً. وإن الأعمار بيد الله، وهم لا يستطيعون التحكم في حياتي. والله من ورائهم محيط. وقد أطلق الثابت المجاهد عبارات عجيبة، أصبحت شعاراً لكل داعية ثابت. منها قوله: لماذا أسترحم؟ إن سجنتُ بحقّ، فأنا أرضى حكم الحق، وإن سجنت باطل فأنا أكبرُ من أن أسترحم الباطل!!

ومنها قولُه: إنَّ أصبع السبابة الذي يشهدُ لله بالوحدانية في الصلاة، ليرفض أن يكتب حرفاً يقرُّ به حكم طاغية.

ومنها قوله ـ عندما طلب منه الاعتذار عن العمل لله والدعوة إليه ـ «لن أعتذر عن العمل مع الله!»[1].

ويروي المجاهدُ «ممدوح الديري» الذي كان مع سيد قطب في القفص، قبيل صدور حكم الاعدام عليه، أنَّ أحد الضباط اقترب من

---

(١) انظر هذه العبارات وغيرها في كتابنا «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد» طبعة دار القلم.

سيد قطب في القفص، وسـأله عن معنى كلمة «شهيد» فأجابه سيد قطب قائلاً: شهيد يعني أنه شهد أن شريعة الله أغْلى عليه من حياته!!

ولما حُكم عليه بالاعدام قال: الحمد لله[1].

وقبيل تنفيذ حكم الاعـدام به، مرَّ به الأستـاذ «أحمـد رائف» وسنحت فرصةٌ للتحدث معه، فسأله «رائف» ماذا تنتظر؟

فأجابه سيد قطب بابتسامةٍ واثقة نابعةٍ من صدر هادىء مطمئن: أنتظرُ الوُفود على ربي[2].

وقبيل تنفيذِ حكم الاعدام به، بعث رسالتين إلى صديقه الأستاذِ الأديب «أحمد عبدالغفور عطار» في مكة، وَوَصلتا إليه، ونشرهُما في مجلته التي كان يصدرها في ذلك الوقت «كلمة الحق» ـ العدد الثاني مايو ١٩٦٧ ـ بالزنكوغراف، بخطِّ الأستاذ سيد قطب.

والرسالتان من آخر ما كتب الشهيد، وتعتبران وثيقتين هامتين في تصوير قوة إيمان سيد، ودرجة ثباته على ثوابته!

---

(١) مذابح الإخوان في سجون ناصر: ١٣٧.

(٢) البوابة السوداء لأحمد رائف: ٢٢٣.

قال في الـرسـالة الأولى: «أمَّا أنا، فأجدني خيراً من أيِّ وقتٍ مضى، في عقيدتي وإيماني، وفي وضوح هذه العقيدة وهذا الايمان في نفسي، وفي وضـوح إدراكي وتصـوري لهـذا الأمـر ومقتضياته، ووضـوح الهـدف والـوسيلة والطريق والغاية.. وكل هذا خيرٌ جزيلٌ جميل، يرجحُ كلَّ ما أديتُهُ ثمناً له من راحتي وصحتي.. والحمد لله..».

وقال للعطار في الثانية: «أهمُّ من أنْ أشكرك - فيما أعتقد - أن أطمئنك عليَّ وأنا في وضعي الذي تعرفُه.. لقد وجدتُ الله، كما لم أجدهُ من قبلُ قط! ولقد عرفتُ منهجه وطريقه، كما لم أعرفه من قبلُ قط:!! ولقـد اطمأننتُ إلى رعايته ووثقتُ بعهده للمؤمنين، كما لم أطمئن من قبلُ قط!!. وأنا بعد ذلك على ما عهدتني، مرفوع الرأس لا أحنيه إلا لله. والله يفعل ما يشاء. والله غالبٌ على أمره. ولكن أكثر الناس لا يعلمون!!»[1].

---

(١) انظر قصة الرسالتين وصورتهما بالزنكـرغراف في «كلمـة الحق» العدد الثاني مايو ٦٧ صفحتي: ١٣ - ١٤. وانظر ذلك أيضاً في كتابنا «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد» طبعة دار القلم.

ولما سيق سيد قطب لتنفيذ حكم الاعدام به، ابتسم ـ وهو يهمُّ بركـوب السيارة ـ ابتسـامـةً عريضة ساحرة، ملأت وجهه، وأضاءت أساريره، والتقطت وسائل الاعلام هذه الابتسامة، وأودع سيدُ ابتسامته كلَّ ما يريد قوله، للدعاة الثابتين من بعده، المقتدين به في الثبات، وفعلت الابتسامةُ فعلها الساحر في قلوب الدعاة، وتركت آثارها بارزةً في حياتهم الدعوية الثابتة.

وتم تنفيذُ حكم الاعـدام بسيد ـ وأخـويه: عبدالفتاح إسماعيل ومحمـد يوسف هواش ـ قبيل فجـر يوم الاثنين ١٣ جمـادي الأولى ١٣٦٦ هـ الموافق ٢٩/٨/١٩٦٦م!!

وقال فيه القائل:

يا شهـيداً رفـع الله به	جَبهـة الحقِّ على طول المـدى
سَوف تبقى في الحنايا علماً	هادياً للركب رمزاً للفدا
ما نسينا أنت قد عَلمتنا	بسمة المؤمن في وجه الردَّى

وصدق فيه قول الله: ﴿من المؤمنين رجالٌ صَدقوا ما عَاهدُوا الله عَليـه، فَمنهم مَنْ قضى نحبهُ، وَمِنهم مَنْ ينتظر، ومَا بدلوا تبديلا. ليجزي الله الصادقينَ بصدقِهمْ..﴾ [سورة الأحزاب: ٢٣ ـ ٢٤].

و . . . شاعر المحنة يحدو للثابتين :

ونقف أخيراً مع شاعر المحنة الدكتور يوسف القرضاوي، لنوردَ أبياتاً مختارة من ملحمته الطويلة، التي نظمها وهو سجينٌ بين جدران «السجن الحربي» وضمَّنها الكثير من الحقائق والمعاني في الدلالات. وهي مشهورةٌ باسم «النونية».

قال فيها :

ثارَ القريضُ بخاطري فَدعُوني أُفضي لكُم بفجائعي وَشُجوني

فالشعرُ دَمعي حين يعصرُني الأذى وَالشعرُ عُودي يَوم عزفِ لحُوني

***

واليومَ عاوَدني الملاكُ فهزَّني طَرباً إلى الإنشادِ والتلحين

أُلهمتُها عصماءَ تنبعُ من دَمي وَيمدُّها قلبي وَماءُ عيوني

«نونيةٌ» والنونُ تحلو في فمي أبداً، فكِدتُ يُقالُ لي «ذو النونِ»

***

قُل للعوازلِ إن رَميتم مصرنا بتخلفِ التصنيعِ والتعدينِ

مِصرُ الحديثةُ قدْ عَلتْ وتقدمتْ في صَنعةِ التَّعذيبِ والتقرينِ

وَتفننتْ كَيلا يَملَّ مُعذبٌ في العرضِ والاخراجِ والتلوينِ

أَسمعتَ بالانسانِ يُنفخ بطنه ... حتى يُرى في هيئة «البالونِ»؟!
أَسمعتَ بالانسانِ يُضغط رأسه ... بالطوقِ، حتى ينتهي لجنونِ؟!
أسمعت بالإنسان يُشعلُ جسمُهُ ... ناراً، وقد صبغوهُ «بالفزلين»!!
أسمعت مايَلقى البريء ويصطلي ... حتى يقول: أنا المُسيء خذوني
أسمعت بالآهات تخترقُ الدُّجى ... رباهُ عَدلُك إنَّهم قتلوني؟!
إن كنت لم تسمع فسل عماجرى ... مثلي. ولا ينبيك مِثل سجين!

* * *

أعَرفْت ما قاسيتُ في زنزانةٍ ... كانتْ هي القبرُ الذي يؤويني؟!
لا بلْ ظَلمتُ القَبر فهو لذي التقى ... رَوضٌ وَتلك جحيمُ أهلْ الدِّين!
هي في الشّتاءِ وَبردِهِ «ثلاجةٌ» ... هي في هَجير الصيفِ مثلُ أتونِ!
نُلقى ثمانيةً بها أو سبعةً ... متداخِلين كعلبة «السَّردين»!
هي مُنتدانا. وهي غُرفةُ نومِنا ... وهي «البوفيه» وحجرةُ الصالونِ
هِي مسجدٌ لصلاتِنا ودُعائنا ... في الكونِ ما أرجوهُ أو يرجوني

* * *

يا عُصبة «الباستيل» دونكمو فلَنْ ... آسى عَلى الاغلاقِ والتأمينِ
سُدوا عَليَّ البابَ كيْ أخلو إلى ... كُتبي، فلي في الكُتبِ خيرُ خدينِ

وخـذوا الكتاب فإنَّ أُنسي مصحفٌ | أتـلوهُ بالـتـرتيلِ والـتـلحينِ
وخُذوا المصاحِفَ إنَّ بين جوانحي | قَلباً بنـورِ يقـينـهِ يهـديني
الله أسـعـدنـي بظلِّ عقيدتي | أفيستـطيعُ الخلقُ أن يشقـوني ؟

* * *

يا أيُّهـا الـمـغـرورُ في سلطانِـهِ | أمِـن النضـارِ خلقت أم مِن طين ؟
يامن أسـأتَ لِكلِ مَن قد أحسنوا | لَكَ دائـنـين ، فَكنـت شَرّ مدينِ
يا ذئـبَ غدرٍ نصبـوهُ راعـياً | والـذئـبُ لم يكُ ساعـةً بأمـينِ
يامَن زرعت الشـرّ لن تجني سوى | شرٍّ وحـقـدٍ في الـصُّـدور دفـينِ
سيزولُ حُكمكَ ياظلومُ كما انقضتْ | دُولٌ أو لات عساكـرٍ وحُـصونِ
ستهـبُّ عاصفـةٌ تدُكُّ بنـاءَهُ | دَكـاً . وركـنُ الـظلم غير ركينِ

* * *

أظننت دَعـوتنـا تموتُ بضربةٍ | خابت ظنـونُـك فهي شرُّ ظُنـونِ
بليت سياطُـك والـعـزائم لم تزلْ | منـا كحـدِّ الصـارم المسنـونِ
إنَّـا لـعـمـري إن صمتنـا برهـةً | فالنـار في البـركـان ذاتُ كمـونِ
تالله ما الـدَّعـواتُ يهـزمها الأذى | يومـاً وفي الـتـاريخ بريمـيني .
ضع في يديَّ القيدَ . ألهبْ أضلُعي | بالسوطِ ، ضع عنقي على السكينِ
لن تسـتـطيعَ بكـل ما أوتـيتـهُ | إطـفـاء إيمـانـي ونـور يقـيني

فالنـــور في قلبي ، وقلبي في يدي ربـي . . وربـي ناصـــري ومُعيني

سأعيشُ مُعتصمـاً بحبـل عقيدتي وأمـــوتُ مُبتسمـــاً ليحيى ديني [1]

---

(١) انظر القصيدة في ديوان الدكتور يوسف القرضاوي «لفحـات ونفحات» طبع دار الضياء ـ عمان.

المحتوى